كتاب في جريدة

أصدرته منظمة اليونسكو عام 1996

زوروا موقعنا على الإنترنت: www.kitabfijarida.com



عدد 113 – الأربعاء 2 كانون الثاني (يناير) 2008

كم بدت السماء قريبة

«رواية»

بتول الخضيري

رسوم شدّاد عبد القهّار



الشريك الثقافي



المؤسسة الراعية

كم بدت السماء قريبة*

«رواية»
بتول الخضيري



ولدت بتول الخضيري عام 1965 في بغداد من أب عراقي وأم اسكتلندية. حصلت على بكالوريوس في الأدب الفرنسي من الجامعة المستنصرية. تنقلت بين العراق والأردن وإنكلترا خلال عملها في مجال الأعمال الحرّة الخاصة. تُرجمت روايتها الأولى «كم بدت السماء قريبة» من العربية إلى الإنكليزية والإيطالية والفرنسية والهولندية. صدرت روايتها الثانية «غايب» عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر– الطبعة الأولى– بيروت– تموز 2004. نشرت مقالات عدة في عدد من الصحف العربية والانكليزية والفرنسية. تعيش حالياً في عمّان.

وإذ يَنشرُ في هذا العدد «كتاب في جريدة» روايتها الأولى التي صدرت طبعتها الأولى عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت 1999 التي تلتها طبعتان لاحقتان وعبر خمسة فصول متتالية فقط من الرواية بما يتناسب والحجم المعتاد لإصدارنا الشهري، فلأنَّ هذه الرواية تعكس إلى حدٍّ ما جانباً من صورة الواقع الاجتماعي المتداخل في العراق خلال العقود الثلاثة الأخيرة من القرن الماضي وترصد، أثر التبدّلات والتحولات الحاسمة على بنية طبقة اجتماعية محددة، وتتابع نمط حياتها ويومياتها خاصة في سنوات الحرب العراقية الإيرانية 1980– 1988 حيث تبدأ فصول الرواية في إحدى ضواحي بغداد ذات النسيج الاجتماعي والبيئي المتداخل أوائل السبعينات: الزعفرانية القديمة، الضاحية الحائرة بين تخوم العاصمة والمتمددة على ظلال القرية، ونشوء المصانع من حولها، وحيث ثقافتان تتعايشان داخل البيت الواحد، تتجادلان تارة، وأحياناً تنعكسان على مزاج الطفلة وتوزعها بين ما ينبغي وما يجب. مثلما تواجه أسئلة الهوية في علاقتها بمحيطها وهذا التنازع المنسحب بظلاله من يومياتها المنزلية إلى تفاصيل أهوائها في صداقات بريئة وغير بريئة هي من أكثر المفاصل تعبيراً عن مكابدات جيل تنتمي إليه الكاتبة.

يبقى توصيف «بنت الأجنبية» ملازماً للبطلة ذات التحدّر الخلاسي: العراقي لناحية الأب والانكليزي لناحية الأم. وهو توصيف متميز في بيئة تحتفل بها وكأنها »نصف غريبة« مما يشكل دراما ذاتية لا مفرَّ منها.

يتجلى الأداء اللغوي حاضراً بكثافة وجدانية وتصويرية عالية في سرد ممتع وحميمي في الفصول التي تستعيد أجواء الطفولة حيث اهتزاز الأرجوحة بين نخلتين يجعلها ترى «السمَاء قريبة جداً» في لحظة لن تتكرر لاحقاً. وصولاً إلى مراهقتها، حيث براءة التعبير وقوة التأثير في أسئلة الموت والوجود والهوية. ولعل ما يلفت هنا تلك التركيبات المزجية اللافتة لأسماء العطور التي يحترف الأبُ تركيبها، لتنتقل صنعتها وشغفها إلى ابنته الوحيدة وريثة موهبته، لتجسد علاقة قائمة على تأسيس بلاغة عضوية وثقافية خاصة بين «الأب والبنت» بين أخلاط العطور في الذاكرة والحواس، وبين ما تحيل إليه من كيمياء لغوية في الطبيعة والشعور.

وإذ تأتي الحرب حدثاً رئيسياً في تلك الفصول فإن مقاربتها انصبت بمعظمها على تأثيراتها البرانية على طبقة اجتماعية محددة لم تتردد تفاعلات تلك الحرب على وجودها وكيانِها بصورة زلزالية وحاسمة، كما حدث لدى معظم العائلات العراقية في ثمانينات القرن الفائت.

من هنا فإن أنوثة السرد في مرحلة الطفولة، تقدِّمُ نموذجاً متفوقاً في استبطان الحكاية أسئلة وتدفقاً وتجربة، بينما تطغى النبرة الإعلامية ومقتطفات من نصوص بيانات القيادة العامة للقوات المسلحة، وحشود القطعات العسكرية على الجبهات وثغور المدن، تطغى على صفاء السرد في فصول عمر ما قبل النضوج، فتخسر «البطلة» امتداد السيرة بميزة الإفصاح عن العالم الجواني، إذ تجد نفسها في تلاطمات تجارب الآخرين ومشكلاتهم من حولها.

من الواضح أن بناء الرواية ينتمي إلى تقنية أدب السيرة أو نموذج المؤلف /البطل، ذلك أن مقارنة أولى بين ما بين التجربة الحياتية للكاتبة، والتجربة الفنية داخل العمل لشخصية البطلة ستعطي القارئ على مختلف مستويات تلقيه ودون عناء يذكر، انطباع المطابقة، وليس مجرد المقارنة بين السيرة الحقيقية والسيرة المتخيلة أو المصنوعة أو حتى المموهة داخل العمل. ومما يعزز هذه القراءة الالتزام الصارم بضمير المتكلم طيلة فصول الرواية وحضور الملامح دون أي اسم سوى التوصيفات المتداخلة.

بيد أن الملاحظ داخل النسيج الفني للرواية وهي تحاول أن تتقصى وتكشف عن أغوار التجربة الشخصية وتضيء أنحاءها المظلمة والبعيدة، طغيان البعد الاستشراقي ونبرة الاستكشاف الاجتماعي،عندما يتعلق الأمر بالآخرين خارج العائلة، أكثر من إضاءة المشهد من الداخل والتفاعل مع خرابه ومعماره، ولذلك فهي بمعنى دقيق رواية عن العراق وفي العراق، أكثر من كونها رواية عراقية بمعالجاتها المعهودة، رغم ما تستخدمه أحياناً من عبارات محلية، فهي تنتمي إلى تلك النماذج الروائية التي قرأناها لدى كلٍّ من جبرا إبراهيم جبرا وغالب هلسا، والتي رصدت حياة شريحة اجتماعية معينة خلال موجات التبدُّلات متعددة المستويات.

الأهم في هذه الرواية هو حرصها الظاهر على أن تقدم ما ينبغي لكل عمل فنيه أن يقدمه وأن يواصله ويتركه لدى القارئ من انطباع ورأي، وهو المتعة.

وحقاً فإن المتعة واحدة من سمات هذه الرواية، متعة لم ينل منه التطويل وامتداد الأحداث وتمدد العبارات في أجزاء كثيرة من هذه الرواية.

محمد مظلوم

* هذه الرواية من منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر – الطبعة الأولى 1999.

شداد عبد القهار
E-mail: shaddgallry@yahoo.com

مواليد ١٩٦٠. خريج أكاديمية الفنون الجميلة ١٩٨٥ فرع الرسم. عضو نقابة الفنانين وجمعية التشكيليين العراقيين .
عضو الرابطة الدولية للفنون (اياب).

شارك في العديد من المعارض داخل العراق وخارجه في مختلف العواصم العربية والعالميّة وحصل على عدد من الجوائز الفنية أهمها: جائة البورتريت عام ١٩٩٨ وذهبيّة الفن العراقي المعاصر في ١٩٩٦ وجائزة ميرو الأولى ٢٠٠٤.

للجسدِ كتابةٌ وألفباءٌ خاصة بشدّاد عبدالقهار فهو يستعملُه تارة كمفردة وأخرى كحروف وثالثة كصرخة في فضاء اللوحة. وهو يزاوج بين الإيحائية المكتنزة لهذا الحضور خاصة بشكله الأنثوي تاركاً التداعيات الآتية من الأختام أو من الرقائم الطينية السومرية التي يوظفها تسير بموازاة النص الجسدي باعتباره كتابةً ولكنه عندما تحتدم الصُور والإيحاءات يلجأ إلى «الكولاج» ليضع البصمات كاملة والملامح مجسّدة وملونة بأحمر الشفاه بدلاً من ألوان الزيت.

وفي كل رموز أدائه التشكيلي يظل شدّاد عبدالقهار مسكوناً بعراق مُدوٍّ يتفجّر داخله ويفيض أحياناً على قُماشةِ لوحته. شدّاد عبدالقهار فنان عراقي لم يغادر العراق ولم يغادرُه العراق.

شوقي عبدالأمير

اقرؤا «كتاب في جريدة» الأربعاء الأول من كل شهر على
www.kitabfijarida.com

برعاية كل من مؤسسة MBI Al Jaber Foundation ومنظمة اليونسكو Unesco وبمشاركة كبريات الصحف اليومية العربية ونخبةٍ رائدةٍ من الأدباء والمفكرين، يتواصل أكبر مشروع ثقافي مشترك «كتاب في جريدة» من أجل نشر المعرفة وتعميم القراءة وإعادة وشائج الإتصال بين عموم الناس ونخبة الفكر والإبداع في المجتمع العربي ليقدّم هديّته كلّ شهر بأكثر من مليوني نسخةٍ لكتابٍ من روائع الأدب والفكر قديمه وحديثه.



سعادة السيد كويشيرو ماتسورا Koïchiro Matsuura مدير عام اليونسكو ومعالي الشيخ محمد بن عيسى الجابر MBI Al Jaber







الصفحة الرئيسية للموقع الالكتروني لـ«كتاب في جريدة».



كم بدت السماء قريبة

بتول الخضيري

الفصل الأول

تنبضُ ذاكرتي على رصيف شارع. كان ذلك الرصيف ينزلق تحت قدمينا وسياج المدرسة الخريفي يمسح كتفكَ معتاداً على مرورنا اليومي أنت تصرُّ على أن تركن السيارة عند التلة في بداية الشارع لنكمل طريقنا سيراً، وأنا حينها مثل أنثى البطريق أجرّ قدميَّ للحاق بك. تسحبني من يدي الصغيرة مسرعاً إلى حيث سأتعلّم أصول المشي الرشيق. فقد قالت لي «مامي» ؟ عذراً أقصد «أمي» ؟ هذا الصباح إنهم سيعطونني دروساً في أنواع المشي وعادات الجلوس وأشكال الرقص.

كم تشاجرت معها كلما أكدّتْ قرارها حول دوامي هنا، دون أن أملك ما أقوله وسط الشجار، أو بأي لغة أقوله، وأعلى رأسي لا يكاد يصل إلى مستوى حزام خَصرِكَ. فكل ما عندي هو جديلة تتدلى بين لوحَي ظهري، حذرتها أنتَ مراراً من أن تقصَّها لتصفف شعري على طريقتها. هي تُحبه قصيراً وعملياً وأنتَ تحب أن ترقبه يطول. تنحني لتودعَ قُبلة في أذني تَركَتْ رطوبة صغيرة أُزيلها بطرف إصبعي وأنت تستدير لتغادر. تُسرع الخطى، فيبدأ صف النخيل المزدحم الموازي للسياج بابتلاعك. نخلة بعد أخرى تقتطع جزءاً منك. ألوّح لشبحكَ المبتعد ثم أخترقُ القوس الهائل الذي يزيّن مَدخل الفناء.

دخلتُ ساحة كبيرة تحاذيها ممرات عريضة زادت من سعة المكان. دهاليز جانبية ضيقة يتجمّع عند تقاطعها صبيان بسراويل قصيرة. جَلَبة أطفال تأتيني من صفوف الطابق العلوي. تمر بي ثلاث فتيات سلكن ممشى لا أعلم إلى أين يفضي. كان حديثهن أكبر مني، ومع أول انعطافة إلى اليمين اختفى معهن. أردتُ أن أتبعهن لكنني لم أجرؤ. تمسكتُ بتوصيتكَ أن أنتظر رنّة الجرس غير مُدركة أنني أقف تحته بالضبط. لما طال انتظاري رجعتُ خطوتين إلى الوراء فالتصق ظهري بالجدار. تلفّتُ حولي. ثمة أستاذ يحمل آلة موسيقية أكبر مني. يدخلون ويخرجون. لا أحد يلحظني. أشعر أنني كنملة!

الجميع يحملون حقائب وآلات وقبعات. أرقبهم جامدة في وقفتي. أعبَثُ بطرف جديلتي. لمحتُ في الزاوية اليسرى صنبور ماء يتوسط حلقة من حشيش ندي. نظرتُ إليه في اللحظة التي سقطت من فوهته قطرة لامعة. في منتصف اللحظة التالية انفتح باب أحد الصفوف أمامي. تهالكَ الأطفال على الخروج يتدافعون ويتصايحون كأنهم موجة دمى يلطم بعضها بعضاً.

بدوا كعشرات من التوائم ترتدي الزي المدرسي. الأحذية كلها متشابهة، الجوارب جميعها بارتفاع واحد، شرائط الشعر لا تختلف في طريقة رفعها. الأطوال متقاربة، لكنهم جميعاً، متفرقين أو مجتمعين، كانوا أكبر مني. شاركتهُم صخبهم من بعيد. هاهم بدأوا يتقاذفون تفاحات في الهواء فوق الرؤوس. يتبادلون الركلات فيثور الغبار حولهم، يتعالى الصياح وسط حركة مضطربة.

فجأة يدوي الجرس من فوقي! أجفل لاختلاط الصوت بغربة المكان يليه ظهور مخلوقة بدينة تملأ إطار باب غرفة المُعلّمات. صاح أحدهم: «جاءت ستْ مَلفينا... مُعلّمة الدين». لقد جاءت لتصحبني معها. التقطتُ أنفاسي الخائفة رافعة بصري إلى أعلى. لافتة المدرسة عملاقة. أعلمُ أن المخطوط عليها «مدرسة الموسيقى والباليه». أنا هنا لأتعلّم قراءة حروفها، ما أكبرها! ترددتُ في أن أضع يدي في يدها المكتنزة، لكنني أعلم أنكَ لن تأتي لتأخذني حتى ينقضي النهار. سيسلمونَني إليك مع رنّة الجرس الثانية.

تجربة يومي الأول في المدرسة تحاصرني بين دقّتين طويلتين لجرس كبير أفزعني!

يسألني الكبار:

– كمْ عمرك؟

أبْسطُ أصابع كفي اليُسرى ثم أرفع سَبابة يَدي اليمنى وأقربهما قائلة:

– ستة.

بعد أن أتأكد من عدّها ثانيةً أضيفُ دائماً:

– وخدّوجة كذلك ستة.

– من هي خدّوجة؟

– هي في المزرعة ولا تذهب إلى المدرسة، لأنها حافية.

صدّقتُ حينها أن من لا يرتدي حذاءً لا يذهب إلى المدرسة.

في فضاء كان كل شيء فيه أكبر مني، حتى نظراتكَ إليّ عبر مائدة الفطور عندما أنادي أمي «مامي» بدلاً من «يومْ» أو «يُمّه»، لم أشعر بحَجمي الحقيقي إلا معها. خديجة، هذه المخلوقة الوحيدة التي تُشعرني بأن هناك شيئاً أصغر مني، صُغِّرَتْ أكثر، بمشيئتي أنا، فاستحالت إلى خدّوجة.

كانت هي عالمي وكل ما يتعلق بالنصف الثاني من النهار. محيطٌ ممتدٌ بين بيتنا وكوخ الفلاح، أبيها، حيث تستلقي مزرعة مشمش. مساحات تغطيها أشجار رشيقة تحمل في أعاليها أعداداً هائلة من أغصان متشابكة تُسقطُ قبيل غروب الشمس شبكات مُعقّدة من ظل وضوء على الأرض تحتها. الأذرع الفتيّة المفتوحة يميناً ويساراً تلمُّ الأشجار فتتصافح العيدان المُدبَّبَة كأنها أيدٍ تتبادل أكواماً من زهر أبيض، تمنيتُ كل ربيع لو أنه يبقى.

عندما تفرز جذوعها صمغاً غامقاً كعلكة شهلاء احترقت قليلاً، نسارع فنقلعها. علكة محشورة في ثنايا الألياف المتشققة، نقضي ساعات في جمعها جاعلتين منها كرة بحجم كفينا. نضغط على العجينة المطاطية، نُمرّغها في التراب لتقلّ لزوجتها. ندوس عليها لتسطيحها ثم تمسك كل واحدة منا بطرف العجينة لاعبتين لعبة مُصغَّرة لشد الحبل حتى يرتخي وسطها وتنقطع. نقتسمها. تارة نجعل منها أساور وخواتم وحلقات نعلّقها على أذنينا. وتارة نزين أيدينا بأظافر مستعارة نحاول ألا يلتصق بعضها ببعض عندما نتصافح ونحن نلعب لعبة «زوروا الجيران».



الراعي
محمد بن عيسى الجابر
MBI AL JABER FOUNDATION

المؤسس
شوقي عبد الأمير

المدير التنفيذي
ندى دلّال دوغان

سكرتاريا وطباعة
هناء عيد

المحرّر الأدبي
محمد مظلوم

المَقَرّ
بيروت، لبنان
يصدر بالتعاون
مع وزارة الثقافة



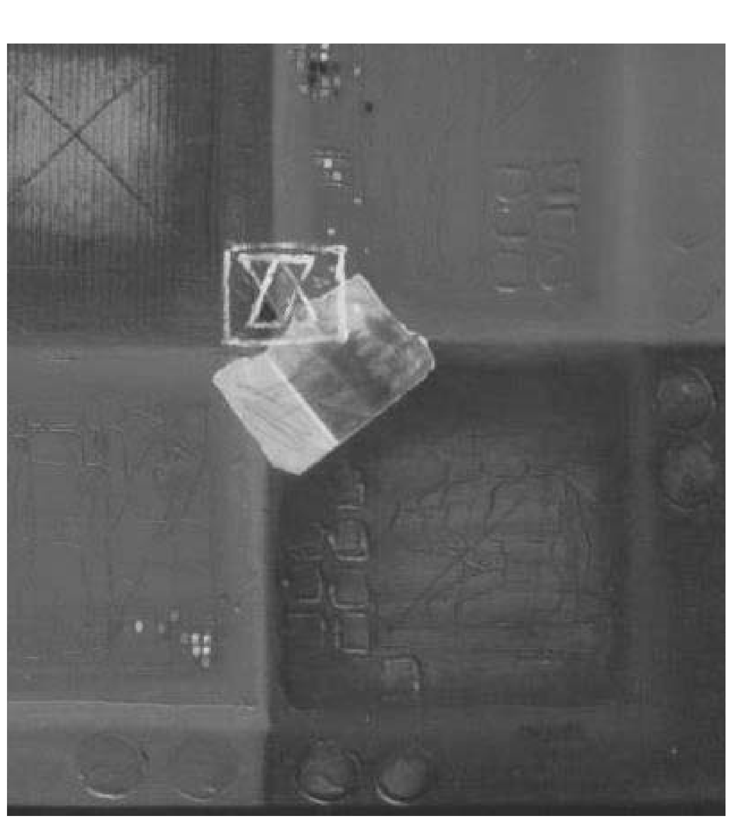
تصميم و إخراج
Mind the gap, Beirut

الإستشارات الفنية
صالح بركات
غاليري أجيال، بيروت.

المطبعة
بول ناسيميان

الإستشارات القانونية
«القوتلي ومشاركوه ـ محامون»

المتابعة والتنسيق
محمد قشمر



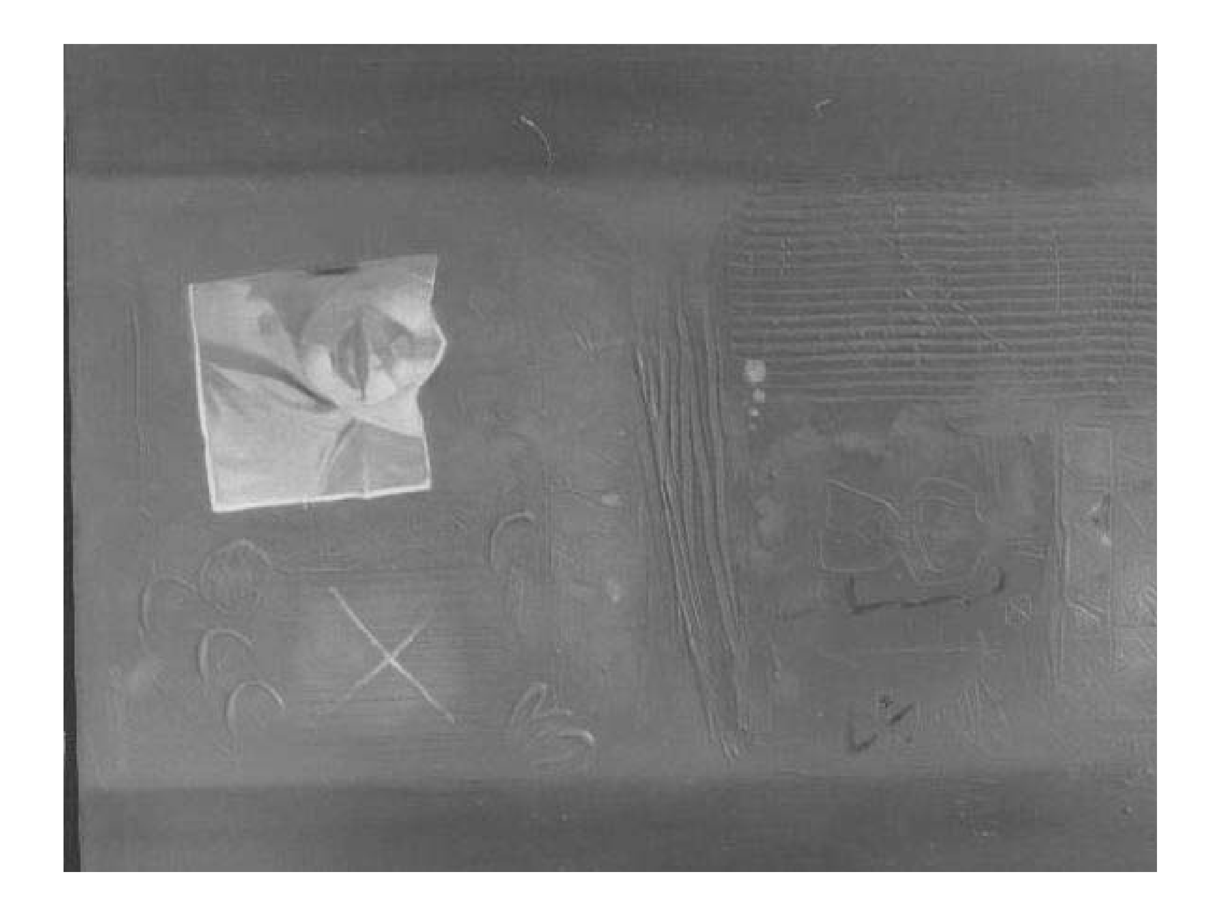
الصحف الشريكة
الأحداث الخرطوم
الأيام رام الله
الأيام المنامة
تشرين دمشق
الثورة صنعاء
الخليج الإمارات
الدستور عمّان
الرأي عمّان
الراية الدوحة
الرياض الرياض
الشعب الجزائر
الشعب نواكشوط
الصباح بغداد
العرب تونس،طرابلس الغرب ولندن
مجلة العربي الكويت
القاهرة القاهرة
القدس العربي لندن
النهار بيروت
الوطن مسقط

كتاب في جريدة
عدد رقم 113
(2 كانون الثاني 2008)

الطابق السادس، سنتر دلفن،
شارع شوران، الروشة
بيروت، لبنان
تلفون/ فاكس 835 868 (1-961+)
تلفون 219 330 (3-961+)
kitabfj@cyberia.net.lb
kitabfijarida@hotmail.com

خضع ترتيب أسماء الهيئة الإستشارية والصحف للتسلسل الألفبائي حسب الاسم الأول

صورة الغلاف الخارجي: للفنان شداد عبد القهار



– لا تقلق لقد عقمت الحوض.

قلتَ لها:

– ليست مسألة تعقيم. أنتِ شطفت الحوض بماء مغلي ليزيل دهون الصحون فلا تعلق بشعرك، لكن هل خَطَر ببالكِ أن شعرك يتساقط بكثرة أثناء الغسل وأنه قد يسد مجرى الماء؟! ثم ما هذه الطريقة المزعجة للاغتسال! ليست صحية ولا أخلاقية.

التفتت الرقبة المطاطية إلى حيث تقف. أحدثت أمي فتحة في شعرها لتلقي نظرة من خلالها:

– عذراً، لكني لم أعتد على طريقتكم، استخدام طاس صغيرة تطوف فوق قدر كبير مليئة بماء لا يلبث أن يبرد بسرعة وأنتم جالسون على تلك التختة الخشبية المضحكة. سأغتسل بالطريقة التي تريحني ثم ألتحق بك عندما أنتهي.

بادَلَتْني نظرة خاطفة فتَبعتُكَ إلى غرفة الجلوس حيث التلفزيون. أمسية السهرة بدأت. فاتت على أمي خمس دقائق من الفيلم الأجنبي الذي تنتظره بشوق. بعد قليل شاركتنا الجلسة بشعرها الطويل ملفوفاً في أعلى رأسها على هيئة كعكة. استقر الجميع كل في مقعده المعتاد نتفرج. مرت عشر دقائق أخرى فإذا بك تُحدِث الطقة الأولى. تناولت مسبحتك في منتصف الفيلم. رحت تُسقط حباتها ببطء شديد: طِقْ. بعد قليل طِقْ، ومن ثم طِقْ. هذه المرة كان دورها قائلة: «كفى!». يبدأ تبادل الملاحظات الحادة. تتطور التعليقات. تتضخم الجمل. أصوات كثيرة تتصادم لتملأ الفراغ الصغير المسكين في أذني. وجدتُ نفسي خلف الأريكة. جديلتي تواسيني، أدغدغ ذقني بطرفها مثلما تفعل أنت بفرشاة الحلاقة. بعد قليل يتصاعد الحوار بين المقاعد. هذه المرة أحشر الجديلة في أذني. تمنيتُ لو أنني أستطيع أن أقول لكما: «كفيّ».

لم يكن اليوم التالي، وكان يوم جمعة، أهدأ من غيره. بدأت أمي الصباح بتذمر متواصل، بكلمات لا أفهمها أحياناً، وهي تمد يدها بين ثنايا وسائل الأريكة، تلمّ مناديلكَ القطنية البيضاء التي اعتدت على استعمالها خاصة أيام إصابتك بالرشح. كم توسلَتْ إليكَ في السابق أن تستخدم المناديل الورقية، تلفظها «كلينكس» بلهجة نقية، بينما أنتَ تصرّ على البصق في «كفيّة». عند الانتهاء منها تحشرها في زاوية أي مقعد تشغله حينئذ. لسوء حظها يصدف أنَ تنساها محشورة في كل مرة، لتبدأ مهمّة أمي بجمعها. لقد خصَصَتْ قِدراً مصبوغةً بطلاء أحمر لتميزها عن البقية، فتنفّذ فيها عملية الغليان الأسبوعية المقرفة. تقوم بغلي المناديل في محلول صابوني بقليل من سائل الكلور القاصر للألوان حتى يذوب مخاطك ولعابك عنها فتزول البقع الخضراء بلون الحشيش. تصطادها بملقط خشب كبير، تشطفها بماء بارد تهيئة لكَيّ التجاعيد عنها بعد التنشيف. يا له من موضوع تفتتحُ به حديث مائدة الفطور.

أمي تتناول **Toast** مع زبدة ومربى. أنت تمضغ قطعة خبز أسمر في انتظار وصول قيمر العرب بيد الفلاح. تمنعني هي من تناوله بسبب ما تسميه النقاط السود الغريبة على سطحه. حبست أنفاسي أرقب الحركات المتبادلة. عندما ترفع أنت قدح الشاي، تخفض هي فنجان قهوتها السريعة التحضير. عندما ترفع أنت نظارتك إلى عينيك يرتفع حاجباكَ للتركيز على التلفزيون الأسود والأبيض الصغير وهو صامت. تمثيلية تحت موس الحلاق. ها هو عبوسي. لم يسعفها المصلح الكهربائي على النطق. تخفض هي جريدة **Times** فات على وصولها عدة أيام. أخيراً يرنّ الهاتف. ينكسر التوتر. بعد قليل أجدني قد هربت نحو خدّوجة.

اليوم عطلة. سنتوغل إلى أعماق المزرعة حيث سور الأسلاك الذي يسيّجها والذي تتدفق على امتداد جانبه الداخلي الأدغال بنهاياتها المدببة. لا مفر من وخزاتها وتجرّح أصابعنا أو ركبنا بحافاتها الحادة كالأمواس. خدّوجة نصبت لنا أرجوحة بين نخلتين. قام أخوها الكبير حاتم بربط زنبيل حاكته أمها من سعف النخيل، بحبل أوصله بين جذعين متجاورين. أطلَقَتْ صرخات مبحوحة متقطعة ونحن نتناوب على ركوبها شادتين بقبضتينا على حافاتها، متأرجحتين لتوتر لعبتنا البدائية. جاء دوري. ركلتُ الهواء بقدميّ... ارتفعتُ إلى أعلى... ركلتُ أقوى... ارتفعت أعلى... سبحتُ في فضاء... أطرّتني زرقة حليبية... كل النخيل تحت قدميّ الحافيتين... الشمس تسبح في مياه النهر... أفرد أصابع قدمي... تنفذ أقلام ضوء من بين الفراغات الأربعة... وبالقدم الأخرى أركل أقوى... أرتفع... استنشقت خط الأفق... وعندها... كم بدت السماء قريبة!!

بينما كنت أرتجف على ظهر أرجوحتنا كانت خدّوجة تتجول في انتظار دورها، باحثة عن نباتها المفضل. تمد يدها الصغيرة بين الأعشاب، تنتقي نباتاً طازجاً ساقه طويلة ملتفة حول نفسها يسمونه «شيخ صملّه». تقشره بأناملها كأنه موزة خضراء رفيعة. هي لا تعرف الموز كما قالت لي مرة عندما حدثتها عنه. قشرتْ الشرائح الخضر بيدها عن قضيب من زغب بنفسجي يشبه الحنطة بنتواءتها قبل أن تجف. ترمي ما قَشَرتْهُ جانباً واضعة النبتة البنفسجية في فمها، ثم تلوكها وأنا أتأملها من الأرجوحة. صورتها تبتعد، تقترب، تبتعد، تقترب. فجأة ينقطع الحبل. ظهري يلاصق الأرض. الزنبيل تحتي وخدّوجة فوقي. تصيح: «وَين حاتم؟» فأكرر بعدها: «أين حاتم»؟. لا نستطيع إعادة تركيبها بمفردنا. سنبحث عنه.

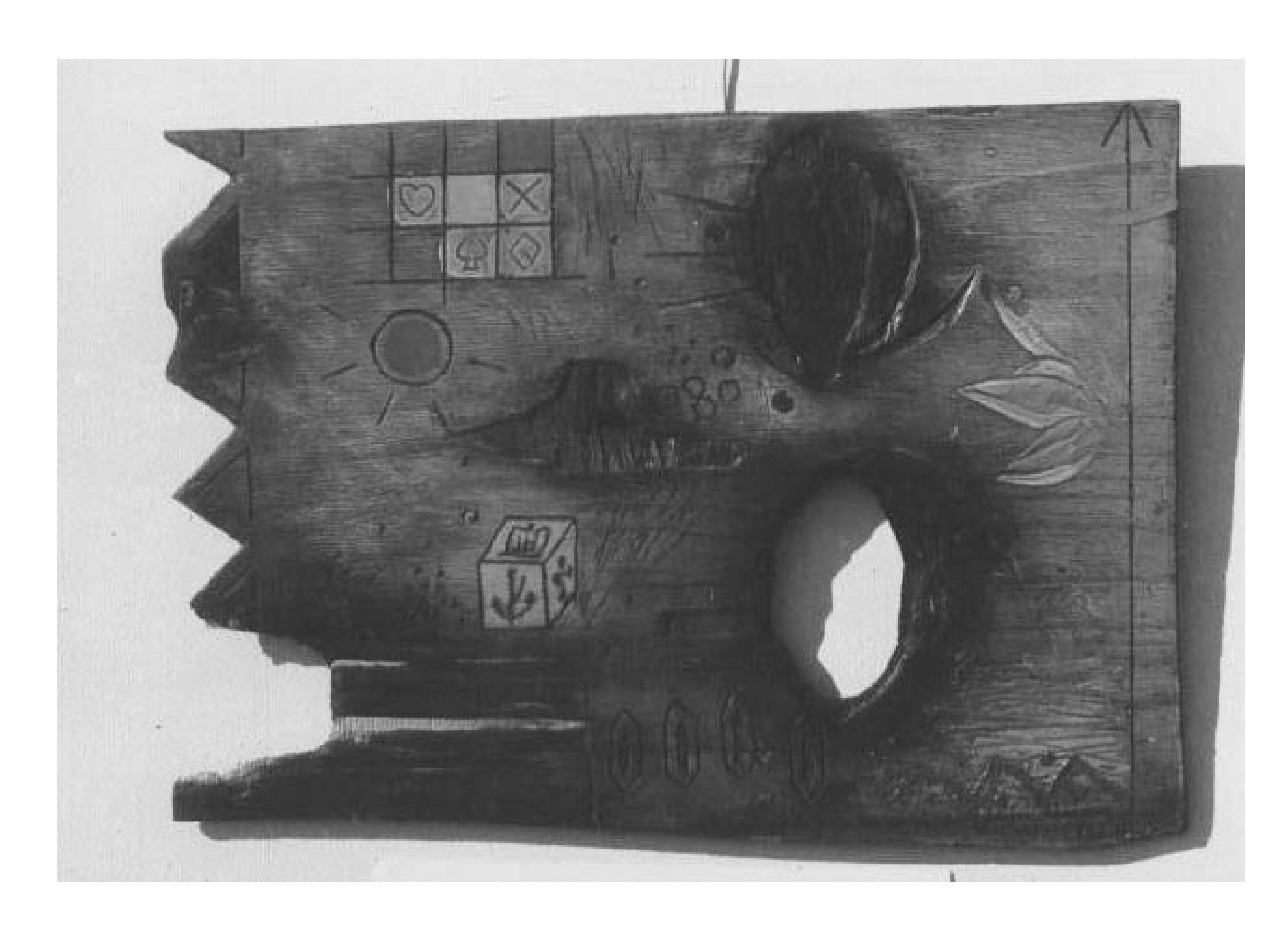
طريق فرعي ترابي يلتقي فيه الفتيان أولاد الفلاحين أيام العطل. كان لقاؤهم يتم عادة يوم الجمعة بعد هروبهم خارج المزرعة من فتحة في أسلاك السور يتدافعون ويتضاربون، يتعثر بعضهم بأقدام بعض، أو بأطراف دشاديشهم، أو بحذاء دون كعب. عندما تهدأ الأطراف نراقبهم يتقايضون كرات زجاجية ملونة، وحاويات بارود، ومصائد مطاطية. وإن حالف أحدهم الحظ، فإنه قد يحصل على لعبة (مصرع) خشبية جديدة. بانتهاء المقايضة، يصيح عبيد ابن عم خدّوجة وحاتم: «يللّه نروح لمعمل البيرة». يهب الجميع باتجاه المصنع الكبير المجاور للمزرعة بضجيجه اليومي خلال أيام العمل الاعتيادية. أما اليوم فتسلل الصبيان هنا وهناك لا يثير انتباه الأهالي، فلا يبقى لنا إلا الانطلاق خلفهم، على مبعدة منهم، طمعاً في مغامرة جديدة.

وصلنا بعدهم بقليل. اخترنا برميلين كبيرين لنختبئ خلفهما نرقب عالم الصبيان. كانوا قد انتهوا من تهيئة جلستهم الدائرية على قاعدة خشبية عريضة، يستخدمها العمال لتكديس الصناديق، لنقلها بالعربات الرافعة. تربّع الأولاد الخمسة تتوسطهم قناني بنّية اللون مطبوع عليها «فريدة» بخط أبيض عريض. كانت القناني مرمية في النفايات المهيأة للحرق. غاصوا فيها ليحصلوا على نصيبهم من القناني التالفة لتنفيذ لعبتهم. يتناول كل واحد قنينة يمسكها من عنقها فيرفعها عالياً، وباليد الأخرى يقوم بإشارة تحذير لأصدقائه الجالسين قبل أن يهوي بالقنينية على الأرض. تتحطم هذه ولا يبقى في يده غير الفوهة. يصفق الجميع في جلبة ريفية: «زين يا سَبعْ! هَلا يا وَرِد! شلونَك عيني؟!». يقترب بعضهم من بعض. يتفصحون ليتبيّنوا إن كانت تكسيرة القنينة نظيفة حسب مقاييسهم. فقوانين اللعبة تتطلب أن يحصل كل صبي على فوهة القنينة بشكل حلقة زجاجية أنيقة، تسمح لهم بلبسها دون أن تجرحهم. يضعون تلك الخواتم الوهمية في أصابعهم لإثبات تفوقهم في لعبة تحطيم القناني، تحديهم المفضل. الفائز بدون منازع هو من سيرتدي خواتم الزجاج الخمسة الأولى، وسيحصل على أكبر قطعة حلوى مطعّمة بالمستكي من صينية عمر جاسم، البائع المتجول في المحلّة الصناعية التي تعترض طريق الزعفرانية الزراعي.

قبل أن تنتهي اللعبة، قام مهرج المجموعة حسّون الملعون، وهو أصغرهم سناً، بتركيب فوهة قنينة على شيئه الصغير الذي نبع فجأة من تحت دشداشته، أمسك به بيده اليسرى، وألبسه الحلقة الزجاجية فوق قماش الدشداشة بيده اليمنى، فأحدث مخروطاً صغيراً يتقدمه. راح يصيح: «من يقلّدني؟!». يأخذ بالجميع ضحك مجنون وحسّون يسألهم ثانية: «من يلَبِّسْ شيئه عمامة زغَيرة؟!». يهرولون نحوه وهو يتراقص، مخلّفين القاعدة الخشبية مغطاة ببقايا بلورات زجاج متهشم أصبح بعضه كطحين سكر يلمع في الشمس. داسوا ما تبقى تاركين مكانهم. نسينا الأرجوحة حتى بدأت خدّوجة تشتهي نباتها قائلة: «يللّه نعلس شيخ صملّه».

هكذا، كانت أيامي معها، سلسلة من أيام جمعة لا تتشابه.

بيتنا، أو ما يطلق عليه أصحابكَ في العمل بيت الخبير، غرف تتداخل فيها أصوات. صوتكَ العميق الذي يشبه بشرتكَ الداكنة ؟ وقد سألكَ أحدهم في إحدى المناسبات إن كنتَ قد استعرتها من سوق الهنود ؟ يشتبك مع صوت أمي عندما تنفعل كأنه صفير إبريق ماء يغلي نافثاً بخاره بعصبية. ورثتُ عنكَ لون البشرة المبالِغة بسمرتها، لكنني اضطررتُ إلى الانتظار حتى السادسة عشرة من عمري كي أتأكد من أنني قد ورثتُ قدرات حنجرتها. ما أكثر ما كانتْ تقلّد مقاطع من أوبرا «ريغوليتو» وهي تستحم أو «كارمن» قبل أن تبدأ بمسح الأخشاب. أما أغانيها المفضلة أثناء الطبخ فهي «الجاز الأسود»، وأحياناً تردد مقاطع من موسيقى فترة الحرب العالمية الثانية، فتكون مكتئبة حقاً ذلك اليوم. إلا أنها تبتلع الكلمات والنوتات حال وصولكَ إلى الجار لانزعاجكَ الواضح من أغنياتها البيتية. لكي تتلافى تعليقاً قد يؤدي إلى تعليقات أكبر، تتوقف فجأة عن الدندنة، كأنها أطبقت فمها على مكعب



أرقب خدّوجة تنحت عجينتها على شكل سمكة أو عصفور، تتفضل عليه بحصاتين ناعمتين تغرسهما على جانبي رأسه، تخلق له عينيه ملوّنتين. لا يختفي عن أنظارها وهي ترفعه عالياً راكضة به بين الأغصان الواطئة، لا تتعب من التحليق معه حتى تصطدم بجذع شجرة. ترتد إلى الوراء ضاحكة للدوار الذي أصابها. يسقط عصفور العجين في الساقية.

بعد أن تفقد ألعابنا مطاطيتها، يذوب صمغ المشمش في أيدينا الصغيرة، ويسيل الوقت بلون العسل المحروق من بين أصابعنا، لينتهي سحر يوم كهذا مع خدّوجة. أمي تنتظرني في البيت. إنه المغيب. يجب أن أترك طفلتي البريّة الهزيلة التي تنتظر عودتي من المدرسة كل خميس. تختبئ عند بوابة المزرعة الكبيرة حيث لا يلحظها أحد منكم، أو مَن يطلق عليه أهلها «بيت الدكتور». اكتشفتُ فيما بعد أن كل من يسكن بيتاً ليس من الطين ولديه سيارة يدعى بـ«الدكتور»، مع تسمية إضافية يطلقونها علينا نحن بالذات «بيت الغريبة».

كانت أمي تجلس بتراخ على الأريكة السوداء في غرفتها، ترتدي ملابس سوداً. شعّ بياض بشرتها بحيث لفت انتباهي، كأن وجهها وذراعيها وساقيها قطع من تلك الدمى الصينية المستوردة التي تُستخدم في التمثيل الصامت، مُلقاة دون ترتيب على الأريكة. تستمع إلى محطة الـ بي.بي.سي وبجانبها مجلات أناقة وكُتَيِّب عن الرشاقة.

على الطاولة الواطئة، حيث تسند قدميها، ثمة إناء صغير فيه تل من حبَّات بُندق وحاوية سكائر تصدر معزوفة، سئمتُها، كلما فتحَت العلبة. أنت تكره التدخين رافضاً أساساً فكرة النساء المدخّنات، لذا جعلتَ غرفتكَ في الطرف الآخر من الممر لتبتعد قليلاً عن سحابات دخانها. مدّت يدها لتتناول إحدى القناني الصغيرة الملوّنة بسداداتها الغريبة. ستطلي أظافرها بعد أن تنتهي من تقليمها وترتيبها. المِبرد والمِلقط والمِقص في حضنها، لا تكاد تنتبه لدخولي. حييتها:

– **Hi** مامي.

أجابت بإنكليزية بيضاء كبشرتها:

– **Hi**، أين كنتِ؟

أجبتها، وهي متوقعة الرد:

– في المزرعة.

ثارت كالمعتاد، انقلب سهواً إناء البُندق بركلة من قدمها.

– تقصدين مع الفتاة القذرة. ألَم أُحذّرك من الاختلاط بحاملة البراغيث تلك؟

– لكنها صديقتي يا مامي.

نَهَرتني بشدة:

– **No**! ليست صديقتك فهي ستنقل لك الأمراض.

ثم سألت وهي تلمّ البُندق المتناثر:

– هل أكلت شيئاً عندهم؟

أجبتُ بصوت منخفض:

– فقط قطعة خبز وقليلاً من الجبن.

انفعلَت:

– **My God**! ألا ترين بنفسك كيف تستخدم أمها مخلّفات البقر كي تشعل ناراً تلقي فيها العجين. أما رأيت عدد الذباب فوق كتل الجبن الذي يتركونه مكشوفاً بعد صناعته بيدين قذرتين؟

أحاول الاعتراض:

– لكن يا مامي.

ترفع سبابة متشنجة إلى أعلى، تقاطعني:

– سأكلم أباك عند عودته ليضع حداً لنزولك إلى المزرعة.

شعرتُ أنني سأكون السبب في سوء الفهم القادم. رغم أن أكثر أيام الأسبوع هي مقاطع من سوء الفهم!

لم أفهم لماذا تتَصايَح معها بهذا القدر! ذهابي إلى مدرسة الموسيقى والباليه جعلكَ ترمي في وجهها انفعالات ما قبل الفطور.

– الفتاة ستفسد.

تجيبك من المطبخ:

– لكن المدارس في هذه المنطقة الريفية فقيرة. أريد لابنتي أن تتعلم اللغة والرقص والاختلاط. لا أسألك الكثير.

تردد خلفها بنبرة استهزاء:

– الرقص والاختلاط، لا ليس بالشيء الكثير، لكنهما قد يكلفانها غالياً يوماً ما.

تأتي لتجلس إلى المائدة:

– لن أدعها في مدرسة بدائية.

يحمر وجهكَ، ربما اختنقتَ بكسرةِ خبز.

– ألا ترين يا امرأة أننا في الشرق، وتَعَلُّمُها هذا الذي تسمينه فناً قد يضر بمستقبلها.

– ذلك أهون من أن تقضي على معنوياتها في مدارس البنات عندكم. لديها بوادر موهبة فلماذا تعرّضها للعزلة. ألا يكفيني اختلاطها ببنت الغجر والمعتوهين الأُميين الذين يجرون طوال النهار في المزرعة المقرفة؟

– أنتِ تتكلمين عن مجتمع لا تعرفينه. لقد حذّرتك في السابق من اختلافات تربيتنا لها، أنا أدرك ما أقوله فلماذا لا تتعاونين معي؟!

– لكننا لم ندخلها رياض الأطفال في سن الرابعة مثل البقية بسبب بُعد المسافة عن مركز بغداد. سئمتُ الزعفرانية هذه وبدائية أهلها. آن الأوان أن تتعلم في المدينة.

– يا مدام، دعيها تختلط بعادات أهل الريف، لا ضير في ذلك. دعيها تتعلق بالأرض والبشر والحيوان كما تربينا نحن. بالله عليك دعيها ترى ما لا ترين.

هدأت أمي ثم قالت:

– أعلم أننا لا نملك ما يكفي لشراء سكن في المدينة حالياً، وسأنتظر مجبرة حتى تنهي أعمالك ومواعيدك في هذه المنطقة، كما سأتغاضى عن وحدتي التي يبدو أنك نسيتها لكثرة ارتباطاتك. إلا أنني لن أتساهل في موضوع دراستها وانتهى الأمر **O.K**.؟!

غالباً ما ينتهي خِلافكما بهذه الكلمة تصدر من أحد الطرفين.

تمضي الأيام وأمي تعلن كرهها للمشمش لأنه يجلب لها الحساسية، أما أنا فيجلب لي خدّوجة محمّلة بأخبار أهل بيوت الطين عند حافة النهر حيث تسكن. رغم تناقضات الرغبات، لم تتمكن أنت من منع أمي من إرسالي إلى تلك المدرسة، وهي بالمقابل لم تفلح في إقناعكَ بعدم السماح لي بالنزول إلى المزرعة. خِلافكما أدى إلى اختلاطي بالعالمين، ما عدا البيت الذي كان في حد ذاته عالمين.

التحقتُ يومها بخدّوجة. قضينا العصر بطوله نبحث عن الديدان والقواقع. نرفع الأحجار والحصى، ننقضُّ على الحشرات النائمة على ظهرها أو على بطنها. النمل بقشوره اللامعة يبرق وينطفئ عندما نتفرج عليه داخلاً، خارجاً، داخلاً، خارجاً من ثقوب تلاله الرملية المخرّمة. نركل بيوته بأقدامنا ونضحك لتبعثر الجميع. أما الحلزون فمصيره الصمغ السائل الخارج من مسامات أشجار المشمش حيث نأنس لتثبيته على الجذوع. بعد ساعات من تجميع تلك الأحياء الهلامية المستقرة آمنة في قشورها المعقوفة، تبدأ إغراءات خدّوجة لها بالظهور، فتغني بصوتها المبحوح أهزوجة ريفية تطلب من القواقع أن تخرج من مخابئها:

«زلنطَحْ... زلنطَحْ... طَلِّعْ كُرُونَك... وانطَحْ...».

تستجيب تلك القشريات لندائها، فتمد رؤوسها الصغيرة من فتحة وعائها الملفوف. تنبض لوامسها للهواء، ثم تشرع بزحفها على كفينا كأنها تُقَبّل راحة يدينا المتعرقتين، ساحبة خلفها شريطاً من لزوجة شفافة تدغدغنا فنضحك أكثر. في نهاية النهار نجد في جيوبنا أعداداً من حلزونات، أبت الخضوع لسحر أغنيتنا، فأسأل خدّوجة:

– ماذا سنفعل بكل قواقع الزلنطَحْ هذه؟

تجيب دون تفكير:

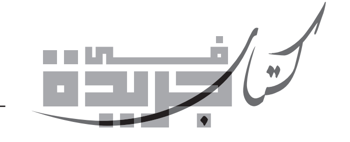
– نمَوِّتهُم.

في الحال تشير إليّ أن أتبعها إلى ما أسميناه فيما بعد بـ«شجرة القَصاص». تتخيل خدّوجة أن الحلزونات تعاندها، لذا ترى أن تعاقبها دون تردد. نقصد الشجرة الأكثر إفرازاً للصمغ في المزرعة. نلصق بها ما تبقى لدينا من قواقع حتى يمتلئ الجذع بأنواع الحشرات والأحياء المعاقَبة في عُرف خدّوجة. ندهس المجموعة القبيحة من بينها فتفقس تحت أقدامنا مخلّفة بقعاً متداخلة من شظايا كلسية ناعمة وسوائل رمادية رطبة. تعطس خدّوجة فجأة تحت الشجرة الواطئة فتهوي على رأسينا وريقات زهر المشمش الأبيض. من بعيد نسمع أمي تنادي.

أبي، لماذا لم تدع تلك الليلة تمر بسلام؟! أكان يجب أن تتشاجر معها عندما رأيتها تغسل شعرها في مغسلة المطبخ؟! عادةٌ لم أفهمها بدوري، فلسبب ما كانت أمي تقف أمام حوض الألمنيوم بعد الانتهاء من غسل الصحون فتشطفه مرتين بماء مغلي. تُقرّب منه وجهها منحنية إلى الرأس إلى أسفل، فيتهدل شعرها الطويل، ويستقر ثقله في قعر الحوض الفضي كاشفاً عن رقبة من مطاط أبيض. تفتح صنبور الماء على كتل الشعر المسترخية بالمقلوب. تشرع بفركه بأظافرها. خشت، خشت، خشت. لا بد أن صوت الفرك أثار أعصابك مثلما تُثار بسهولة إن فرك أحدهم كمية من مسحوق النشأ بين إصبعيه أو قصّ قطعة فلّين أو ورق مقوّى بسكين حاد: سيخ، سيخ، سيخ. لماذا نقشعر فجأة لصوت احتكاك ما؟! أنا لا أحتمل صوت مرور ظِفر على ورقة أو قطعة خشب. أمي لا يمكنها احتمالي عندما أصك بأسناني بصوت مسموع: جز، جز، جز، أو أن أطقطق مفاصل أصابعي على مقربة منها فتنهرني: «كفيّ». على وجهها تقزز واضح. هذا ما حدث لك بالضبط فتوجهت نحوها قائلاً:

– كفى!

أجابت بكل هدوء من تحت ستارة الشعر:



جيب أمي الوردي الذي يعتلي صدرها الأيسر. تملكني شعور غريب بأنّني سأركله وأركض، لكن، كأنه تدارك فكرتي فسارع يقول:
–Sorry! لم ألحظ عُقدك الجميل.
لن أقدم قلادة قِدّاح النارنج لغير خدّوجة بعد اليوم.

راحت أمي توزّع شكواها بين زائرَيها. تتذمر من قذارة الطريق الذي يشق المزرعة، رابطاً دارنا بمجموعة الأكواخ القابعة قرب دجلة بشريط من زبل وأكوام نفايات، ناسية أن تذكر موضوع تحويلها إلى أسمدة. ثم وصفت انزعاجها من انقطاع الماء الذي قد يطول، والكهرباء التي قد تنقطع ليلة كاملة. لا يمكن لها أن تفهم كيف ينام الناس على السطوح، أو في العراء، وسط نقيق الضفادع. يتبادل الثلاثة سكائرهم والدهشات. كم يتشابهون بحركات أيديهم، والتفاتة رؤوسهم، والطريقة التي يطلقون بها oh، aha، أو really؟ بين جملة وأخرى.

قامت أمي بتقديم الشاي الخفيف كالمعتاد، ومع ذلك يضيفون إليه الحليب! تناولتُ مكعباً من سكر أمسكته بطرفَي سبابتي والإبهام، جعلته يلامس سطح الشاي في فنجاني برقة غير متناهية. رحت أرقب تصاعد امتصاص السكر للشاي من بين أصابعي بلذة، حتى تحول لونه من أبيض إلى بنّي فاتح، ثم ذاب وتهشم في يدي، فلعقت الحلاوة المتبقية. حركة لا تحبها أمي. بعد قليل أخرج ديفيد زبيبة سوداء من فمه. وضعها على حافة صحنه. متعذراً بأناقة: «عذراً إنها ذبابة لم تُسلق جيداً». ضحكوا بنبرات متشابهة.
سأل ديفيد سؤاله المعهود:
– متى ستأتين لزيارتنا في البصرة؟ صحيح أنها حارة ورطبة، لكن عندنا بعض الأصدقاء الجُدد من إيطاليا نود أن تتعرفي إليهم.
تجيبه أمي:
– زوجي لا يحبذ أن أترك المكان، يريدني أن أعتاد على الأجواء هنا أولاً قبل أن أبدأ بالتنقل.
قالت ميلي:
– ألم تعتادي بعد كل هذه السنوات؟!
أمي:
– ما زلت أحاول، لكنه يصرّ على أن ألازم ابنتي، وأن أنتظر عودتها من المدرسة يومياً، بذا يصبح حتى النزول إلى بغداد صعباً لضيق الوقت.
ديفيد:
– ألا تستطيعين تركها في نهاية الأسبوع مع والدها لتأخذي فترة راحة لنفسك؟
أمي تتنهد:
– إنه لا يؤمن بذلك، ولو فعلت، فقد يتركها مع الغجر هناك، وأخشى من أن تصاب بمرض ما.
قالت ميلي بابتسامة:
– لا تبالغي، فنحن عدلنا عن غلي الماء قبل شربه كما كنا نفعل في أيامنا الأولى هنا. إنها مسألة وقت وسيقلّ تركيزك على النظافة والتعقيم وأصول المائدة، خاصة أوقات الطعام. إن الحياة هنا تتبع حرارة الجو، وليس للحر نظام.
أمي:
– نعم يا ميلي، لكن زوجي عصبي الطباع مما يجعل المكان يضيق بنا لكثرة الشجار. أنتِ أعلم برغبتي المبدئية في إرسالها إلى إنكلترا لتتعلم، لكن منذ أن توفي والداي بعد أن باعا بيتهما الصغير في منطقة Ealing وأنا لا أجد من يهتم بتربيتها في لندن. لقد وضعت أكثر ما أملك في التجهيز لزواجي واللحاق به، أما الآن فلا مجال للعودة، حتى لم يبق لي من أفكر بزيارته في الـ Christmas.
قالت ميلي بنبرة جديّة:
– أنت متعَبة. كنتِ وحيدة هناك، والآن تعيشين وحيدة في الغربة. نتمنى لو تستطيعين اللحاق بنا.
أمي:
– ليس لدي خيار، أنت تعرفين القصة. ظننت... ظننت المزارع هنا كما وصفها لي، سحراً شرقياً ينحصر بين شروق وغروب حالمين من دخان بنفسجي أثيري لا يمكن تجاوز إغرائه. فإذا بها حر خانق يتسلق النخيل. ذباب في الصباح، بعوض في المساء، وصفير صراصر مجنّحة تتقافز في غرفتي عند الفجر. لا بد أنك جربت السهر طوال ليلة حارة مضنية والكهرباء مقطوعة، تحاولين اصطيادها في الظلام على ضوء شمعة أو فانوس. إضافة إلى حساسية مقرفة من مشمش لعين كل ربيع. حتى لو رغبت في السباحة، فأوحال النهر ستسمم بشرتي، وقد يغتصبني هؤلاء على أي حال. أما حمام شمسي فمحرّم في هذه الأنحاء.
يسألها ديفيد بشيء من التفاؤل:
– لماذا لا تقنعينه بالانتقال إلى البصرة؟ لدينا كل الخدمات متوافرة للأجانب، لن تشعري بالحرج.
أمي:
– هذا غير ممكن. فمعمل المُطيّبات والمختبر الذي يتعامل معهما قد أقيما في المنطقة، وسنمكث هنا حتى ينتهي عقده معهما. كما أنه متعلق نفسياً بالأجواء الريفية التي تذكره بنشأته. أكاد لا أصدق أنه الشخص ذاته الذي تعرفت إليه أيام دراسته عندنا.
تبادلت ميلي نظرة سريعة مع أخيها:
– شركتنا في حاجة إلى موظفين أجانب، وقد أدرجنا اسمك في اللائحة. فكري في الموضوع، ناقشيه عسى أن يتغير الوضع لسبب أو لآخر في المستقبل القريب. العرض مفتوح لمدة ثلاثة أشهر.
تنهدت أمي بعمق، ثم خفضت صوتها:
– لولا الطفلة لفعلت.
التفت ديفيد نحوي مبتسماً كعادته:
– وأنت يا أميرتي، متى ستزورينا مع مامي؟
أجبته:
– عندما يأتي أبي.
وأضفت:
– يا داوود.

أبي، قلتَ إن بُعدكَ لن يطول وها أنا ذا لا أكاد أراكَ حتى نهاية الأسبوع. انغمستَ في أعمالكَ، وأمي انغمسَتْ في مرطبات الجلد تعتني ببشرتها. خفّت الأصوات في البيت لقلّة وجودِك. لم تعد تضفر لي جديلتي في الصباح، أو تهمس كلاماً يقلقني وأنت تقلني إلى المدرسة «لا تلعبي كثيراً مع الأولاد». «الكرات الزجاجية الملوّنة ليست لعبة بنات». «دعي الدراجة لغيرك». «أريدكِ متفوقة هذه السنة». ثم قمتَ بتسجيلي في جولات الباص الأصفر الكبير. إنه يسبب لي الدوار. أطفال الصفوف العليا لا يكفّون عن قَرْصي من تحت المقعد. يستهزئون بسُمرَتي قائلين: «جاءت العَبْدة!». أمي تحب نومتها المتأخرة، لا داعي لإيقاظها لتربط لي شريط حذائي أو تعدّل ياقة قميصي. الطعام جاهز منذ الليلة السابقة وإذا حدث أن نَهضَتْ معي باكراً نصحتني قبل مغادرتي: «لا تكلّمي الغرباء».

عند عودتي بعد الظهر أجدها جالسة على الأريكة، تعتلي شعرها المصفف عمامة نسائية بيضاء، ترتديها دائماً بعد أن تستحم. تقول إنها تقرأ معظم الوقت في هذا الحر روايات تسميها خفيفة، ثم تتبادلها مع ميلي وديفيد أثناء زياراتهما المتقطعة القصيرة. أسنانها مطبقة على إصبع بلاستيكي محشورة في طرف سيكارة مشتعلة. شفتاها منفرجتان لكي لا تلوّث حمرتهما الحاملة البلاستيكية البيضاء المختارة خصيصاً لتتناسب مع المنشفة البيضاء وخفَّي الحمام الأبيضين. فَرَشَتْ أمامها خطوطاً متوازية من بطاقات ملوّنة، إنها تلعب ورق الكوتشينة. عَلّمها أحدهم كيف تأخذ خيرة لنفسها، تنظر في مستقبلها. يرتفع ملك في الهواء، ثم يهوي أمير فوق ملكة، والمهرج انقلب على وجهه تحت صحن صغير يعتليه فنجان مقلوب. علموها أيضاً شرب القهوة التركية المُرّة، وكيف تقلب الفنجان لتقرأ فيه المجهول.

نتبادل تحية مختصرة دون قُبَلْ. تسألني:
– هل بدأتم دروس الرقص؟
أُجيبها وأنا أقضم إصبعاً من جزر أخرجته من جيبي، أزحتُ عنهُ وبراً عالقاً من قماش الجيب:
– ليسَ بعد.
تجمع خطاً من البطاقات تضعها جانباً:
– لِمَ لا؟
ألتهم الجزر بشهية:
– لأن مدربتنا حامل، و...
تقاطعني:
– لا تتحدثي وأنتِ تأكلين.
تذكرتُ كيف مَنَعتْني من أكل الأرز بيدي كما تفعل أنتَ بتلذذ، مصرّة على أن أستخدم الشوكة والسكين. ثم عَلّمتْني أصول تناول الحساء. لم أكن أعرف أن تناول الحساء يجب أن يتم من حافة الملعقة القريبة من الفم وليس من مقدمتها!
قلت:
– إنهم يجرون تعديلات على قاعة الرقص. لم يجهزونا بملابس الرياضة بعد.
سألتها:
– أين أبي؟
أجابت كالمعتاد:
– مع مُطيّباته.
قبل أن تستأنف تعليقها، رَنَّ هاتف أخضر يزيّن قاعدته قرصٌ بلاستيكي مذهبٌ. أصدر الجهاز وَروَرة متميزة كأنها صوت مجموعة من صراصر ليلية محبوسة داخله. تبدأ ثرثرة أمي: «أوه Hello ميلي، كيف حالك؟».

إنها فرصتي لزيارة البقعة الممنوعة من المزرعة. انشغالكَ اليومي ولَهوها كل عصر هما إشارة تسللي الذي بدأ يقلّ مع ازدياد لائحة الممنوعات التي قَدّمَتْها لي مؤخراً بتشجيع منكَ. ممنوع الأكل في بيت خدّوجة. ممنوع الذهاب برفقة حاتم أو عبيد إلى أعماق المزرعة. ممنوع اصطياد الدعاميص في مياه السواقي مع الأولاد. ممنوع الاقتراب من معمل البيرة مهما كان. عندها فقط بدأت أدرك أن للوقت معنى. غادرتُ المنزل مسرعة أدندنُ لازمة اشتهر بها عبيد: «يَمّو حسين... كعدي زين... بيعي الطماطة بفلسين...».

لقد حُذِرنا مئات المرات من اللعب قرب النهر. وجدتُ خدّوجة هناك ترفع دشداشتها من قماش الكريشة الخفيف، تلمّها تحت ذراعيها لتتأمل قدميها الحافيتين تغوصان في الطين الناعم. تتولد فقاعات مُلامسة لساقيها، تنفجر عند حافة الدشداشة المتدلية من الخلف، مسببة زبداً عكراً تختلط فيها الأوساخ. تلتفت نحوي وتناديني لمشاركتها. أسارعُ لانتزاع حذائيّ والجوربين. أرفع تنورتي مثلما تفعل هي. تغور قدامي في الرمل المنقّع البارد. تلتف رغوة صفراء حول كاحليّ فأصيح باتجاهها:
– انظري خدّوجة، أنا أرتدي حجلين من صابون.
ترد على انفعالي بابتسامة هادئة. عندما نألف برودة الماء نلعب لعبتنا. نقف باتزان على ساقٍ واحدة ليتسنى لنا استخدام قدمنا الثانية في التقاط العيدان والأعشاب الخفيفة العائمة بقربنا. نتصرف بأصابع قدمينا بسيطرة عجيبة. بعد أن نصطاد قصبة، أو طحلباً، نتبادله فيما بيننا بأصابع القدم ذاتها وما نزال واقفتين على ساق واحدة، حتى يختل توازن إحدانا وتتأرجح، عندئذ تخسر اللعبة.

أراني معها على ذلك الشاطئ الغامض ببعده الآن. عندما أتوق إلى استعادته، أجدني أستذكرُ سيل طفولتي مع خدّوجة كأني أفعل ذلك على ساقٍ واحدة.

قرب تلك البقعة تنبتُ نباتات يابسة نسميها «الشكّيك». نوع من صُبّار غامق اللون، يعطي ثمرات جافة صغيرة تشبه قنافذ شائكة بحجم حبات الفستق. نقطفها بحذر، فوخزاتها مؤلمة. ثم نشرع في تقاذفها فتلتصق بملابسنا وشعرنا وجواربنا. نعود محملتين بها، لا نعرف كيف نتخلص منها، فيساعدنا بقية الأطفال. حاتم، أسود الذي ينادونه دائماً «بِنْ أُم أسود»، وعليوي الصغير، يخلّصون شعرنا من الحبات الشائكة. لسبب ما لا يكفّون عن دندنة لازمات يقضون الصباحات في تأليفها. لا نفهم منها شيئاً: «طوط حَيّة... ناصر دَيّة... شِدْ الكور... على الزنبور...» أكثر ما يغنونها في مناسبة تقطيع الجُمّارْ. هذا اللب الأبيض المستخرَج من جذوع النخيل، لتفريقه بين الآخرين، احتفالاً بطعمه الطازج. كم شاركتهم دون علم أمي!
لا نستفيق من أحلامنا إلا عندما يأتينا صوت دَلّة البعيد تنهرنا متوعدة. لماذا يبدو لي أن صوت الأمهات يأتي دائماً من بعيد!

سحر الشَطّ يجرنا إليه رغماً عنا، حتى اضطروا إلى إخافتنا بأسطورة «السِعْلوّة» التي تخرج من الماء لتبتلع الأطفال. تَخيلتُ هذه «السعْلوّة» الخرافية بثدي واحد يتوسط صدرها. لم أَضع ملامح أخرى لها في كوابيسي غير ذلك الثدي، رغم أن أهل خدّوجة أكدوا أنها ستهجم علينا لتفترسنا، لا لترضعنا! مع ذلك كنت أفضلها على قَطْر النَدى! ثم قام جدها الخرف بتضخيم الصورة التي بدأت تفعل فعلها فينا بقوله إن «عبد الشط» عملاق أسود يسكن مياه دجلة ليحرس شواطئها. وإنْ نحن أمضينا ساعات طويلة هناك فالشمس ستحرق بشرتنا ونصبح سوداً مثله. خرافتان تكفيان لإبعادنا عن النهر وأسراره، فوجدنا البديل في أوحال السواقي حيث نشعر بحماية أشجار المشمش على الأقل. كلما أوشكتُ على النزول حافية مثل خدّوجة إلى مياه الساقية، تراءى لي وجه أمي قائلة بتهديد:
– إياك.

رددتُ لازمة في طريقي إلى البيت: «يا حُمصَة... يا زبيبة... وقت العشا... تَشريبة...» أفكر. الربيع في مزرعة المشمش، لولاه لكانت طفولتي مع خدّوجة ترابية كلها. ليس فقط بسبب العواصف الرملية التي كانت تهجم صيفاً وأنا معها أثناء العطلة، لكن أكثر لون يحضر حين أذكرها هو لون التراب. مياه النهر الطينية، أوحال السواقي، بيوت اللِبن المرقّع بالقش، وثمة مخبز ريفي مصنوع أيضاً من طين ذي تدرج قهوائي باهت اسمه «تنّور». ثم أقراص روث البقر المصفوفة عند حافات مجمعهم السكني الفقير، تنفث رائحة حِرّيفة ممزوجة بالتبن في وجهي كلما مررت.

في زوايا بيتهم تتأرجح سلال مرمية بعضها فوق بعض بإهمال، جميعها مصنوعة من قصب أصفر. تكتمل الصورة بحصيرة بنيّة تحت الأقدام، وأخرى معلقة على الجدار. أخيراً، أوانٍ فخارية مخصصة لحفظ طحين أغبر تستخدمه دَلّة لصناعة الخبز. بعد شوائه، تخرج الأقراص السمراء تغطيها فقاعات متيبسة، حافاتها بدأت تحترق. تتوجه الفلاحة بجبينها المتعرق بفعل حرارة الـ«تَنّور» نحو «الحِبْ» الطيني، هذا الوعاء المخروطي من فخار يستخدم لتصفية المياه. جداره الخارجي متكسر، والشروخ تمتد من كل جانب، يقطر ندى من مساماته يشبه عرق وجهها.

ذرات التراب في كل مكان، هذا الغبار الذي يغطي عباءاتهم السود، ملاءاتهم، أثاثهم، أبقارهم، بل ووجوههم، كأنه سحر حيواتهم. أهل خدّوجة لا يتوقفون عن الحركة، متقمصين ألوان كل ما يحيط بهم، فإذا كل شيء بلون التراب، حتى بشرتهم سمراء كالطين. ينتمي الجميع إلى العائلة البنيّة ذاتها. صبغة يتوارثونها بديمومة مثيرة. كم أعجب عندما يَصِفون سُمْرَتي بدورهم وأنا قادمة إليهم: «هلا بقُرص الخبز هلا»!

دعوة على العشاء تُقام في بيتنا لأول مرة. إنها مناسبة افتتاح مشروع المُطيّبات. لم أركَ يا أبي من قبل بهذا الانفعال. أكاد ألمح حمرة خفيفة

ثلج في انتظار أن يذوب.

تعلمتُ أنا بدوري لعبة التلافي تلك بتذكيري المتواصل لنفسي ألا أمزج بين لغتين في كلامي، فقد أدركتُ كم يؤثر ذلك في خلق أصوات النشاز في أرجاء البيت. كم أكره أن تكون معركة ذلك اليوم بسببي مثلما حدث عندما قلتُ مرة:

– مامي، أعطيني صحناً و **spoon**

تأتيني زمجرتكَ لأُعيد جملتي:

– أمي أعطيني صحناً وملعقة.

ثم سهوتُ مرة عندما طلبتُ منكَ وأنتَ تترك غرفتي في إحدى الأمسيات:

– بابا، لا تغلق الـ **door** خلفكَ.

فإذا بكَ تصفقه بشدة.

وعلّقتُ مرة على المائدة:

– هل سنفطر **egg** هذا الصباح؟

انسحبتَ عن الوجبة دون أن تنبسَ بكلمة، وتركتني في ارتباكي. لكن الحد الفاصل كان عندما سألتُها في إحدى المناسبات:

– مامي، هل تعرفين كيف تعملين **yellow** كبّة كالتي ذقتها عند أهل خدّوجة؟

احتقن وجهها فوراً، أجابتني:

– هل أكلتِ **yellow** كبّة عندهم؟ ألم أحذرك؟

بلغ استياؤكَ قمته فضربتَ المائدة بقبضتكَ.

– يا سلام! أولاً اسمها كبّة حلب، ثانياً ممن تحذرينها بالضبط؟ ها؟! أمِن الاختلاط بالذين سيعلمونها لغتها بالشكل الصحيح؟ أنظري إليها كم هي مرتبكة تتردد في اختيار الكلمات. ألم أطلب منكِ مراراً وتكراراً أن تعوّديها على قول مع السلامة بدلاً من **bye bye** ومرحباً بدل من **hi** وماذا عن كلمة شكراً بلداً منّ **thank you**؟!

أضفت بإصرار:

– هذه الطفلة ستكون عرضة للاستهزاء. دعيها تختلط بهم أكثر فقد آن لها أن تعبّر عن نفسها بصورة مفهومة. ذلك أقل ما يمكن أن نقدمه لها.

عندها فقط أدركتُ أنني تعلمتُ كيف أُبقي على لقاءاتي بخدّوجة. تعلمتُ كيف أنسجُ كلماتي التي تناسبني، وأهم من هذا وذاك تعلمتُ متى أستخدمها. يجب أن أتلافى خلطها عندما يكون مزاجك مرتبكاً مع أمي، ويجب أن أتعمد مزج اللغتين عندما أنوي زيارة صديقتي في المزرعة. إلا أنني أقع أحياناً في فخ لعبة المفردات التي لم تسعفني في الصف، فقد سألتني المُعلّمة مرة:

– ماذا يعمل والدك؟

أجبتُ:

– يصيحُ عندما تغني أمي ويخرجُ كثيراً.

ضَحكَتْ. تَذكّرتُ بقرة ملونة ضاحكة على علبة جبن فرنسي. حذاء المُعلّمة أخضر قبيح يطلقون عليه «أبو كعب الدبابة». اسمها ست زهور أم الجغرافية. أنا أفضّل تسميتها ست جغرافية أم الزهور.

أعادتْ سؤالها:

– قلتُ ماذا يعمل والدكِ، وليس ماذا يفعل. يا عيني عليك! أقصد ما هي مهنته؟

أجبتها بتأن هذه المرة:

– تاجر مُطيّبات.

لم أفهم حرفاً مما قلتُ حينها، حين تعلمتُ في تلك السنة أن تاجر تعني من يبيع ويشتري. في السنة التي تلتها تعلمتُ أن مُطيّبات تأتي من طيب، وأن غرفتكَ لن تخلو منها. روائح، عطور، طعُوم، ألوان، مساحيق، نكهات، سوائل، أبخرة حلوة وأخرى حامضة. كلها تنبعث من صناديق كارتونية، علب مكعبة ورقية، أسطوانات حديدية، أكياس شفافة وأخرى غامقة اللون، تتخللها مواد عازلة للرطوبة ونماذج حاويات بلاستيكية، وأوعية زجاجية عجيبة غريبة. تأتي بها كل يوم فتتجمع على الرفوف وفوق الطاولة التي لن تتحمل المزيد، وحتى تحت السرير. أمي لا تفهم كيف يمكنكَ النوم في أجواء تطوف فيها روائح حلويات. تقول إن كل زاوية من غرفتكَ تبعث رائحة دبقة. أنت تدمدم: «أفضل من رائحة النيكوتين». أنا أفكر في النمل الذي يعشش ويسمن في تلك الحاويات، كيف سأقضي عليه؟ بالماء والصابون أم بالرشاش المُبيد!

تعيش خدّوجة في بيوت عدة في آن واحد. تتنقل بين أهلها في أكواخهم الثلاثة المتكئ بعضها على بعض مثلما يفعل الأفراد في داخلها. عندما تصحبني معها إلى هناك، يبدو لي أن الحجرات تضيق بهم وهم يتدافعون تحت السقوف الواطئة. عباءات النساء الواسعة، دشاديش الرجال العريضة بعدما تُنزع عنها الأحزمة لتُعلّق على مسامير صدِئة خلفَ الباب – ما يُفترض أنه باب – هو ما يشغَل الحيز الحقيقي للمكان وليس كثرة عددهم.

المنظر الخارجي لتلك الكتل الطينية الثلاث المركونة عند حافة النهر يوحي بهياكل منسية قد تُشعِر الرائي من بعيد بإحساس الـ «لا شيء»، لكنها كانت لي كل شيء. كنت أرقبهم يبنونها بعلب السمن الفارغة. يصفّونها طابوقاً من معدن، يحشون الفراغات باللِبن والطين. ثم يسدون الفجوات والزوايا بأنواع مختلفة من علب الحليب الجاف وقناني قديمة وقطع حديد مستهلكة. عندما تسقط سهواً لطخة طين عن الجدار، تظهر كلمة «نيدو»، أو وجه فتاة علبة «زيت البنت». كان ذلك ملكهم المتواضع، فيه كل ثقتهم التي تقيم الشمس والمطر، كما كان فضاءهم الوحيد لاستضافة غريب يفكر بالاقتراب منهم. كم كان هذا الاقتراب يشغل تفكيري. غير أني لم أشعر قط بأنني غريبة. بالرغم من تسميتهم إيّاي ببنت الأجنبية، كانوا يرحبون بي في أي كوخ اخترتُ دخوله. كانت خدّوجة، إن لم تجرّني بخفة من يدي، تدفعني من ظهري حتى اعتدتُ أن أدلف إلى أوكارهم دون حاجة إلى تشجيعاتها: «تعالي تعالي لا تستحين». أما هي فدخولها بيتنا من أول ممنوعات أمي، تسميها القذرة وناقلة القمل. كلما زادت رفضاً لخدّوجة زاد انتظاري، رغماً عنها، للنصف الثاني من النهار، حيث سألتقي بذات الوجه الأسمر في منتصف الطريق الترابي بين بيتنا والنهر. سيرشونه بالماء، وستستلقي قطرات هائمة على تعرجات الأرض متماسكة ككرات زئبق تمرغت في التربة لتنحشر بين مساماتها. تأتي خدّوجة بوجهها السنجابي الجاف، وزوايا فمها المتيبس، والكَلَف الشمسي يُبقّع بشرتها لتقودني إلى مأواها. ستجلسني القرفصاء قرب أمها التي تغسل القدور والأواني في مياه الساقية العكرة. اسم أمها دَلّة. ستهيء (تشريب البامية) لزوجها كاظم، فينقضّ الجميع على صينية الغداء المتأخر، غداء الفلاحين. يمزقون الخبز ويتوزعونه بينهم حريصين على أن تصل لخدّوجة لقمتها أيضاً.

أتفرج حتى يفرغوا فتأتينا دَلّة بحلقتي «سميط»، تلك الأساور العجينية نصف المطبوخة مُزَيَّنة بسمسم قشوره أكثر من بذوره. نرتديها في معصمينا متباهيتين بها، ثم نلتهمها على عجل قبل أن نزور كبيرة العائلة. إنها عجوز ثمانينية تدعى «الحجّية». أناديها بيبي. في كل مرة نزورها تضحك قائلة: «ها؟ جايين تزورون بيبي الحجّية يا ملاعين؟!». ندخل عليها، تريح حدبتها إلى الجدار. تجلس متربّعة، مسبحة اليُسر المتآكلة في يدها. تحك رأسها من فوق فوطتها السوداء بظِفْرها الأصفر، ثم تعيد تثبيت الدبوس الذي يمسك الفوطة. قالب جلستها تلك لا يتغير مهما جاء الربيع ورحل. تجاعيدها المزدحمة تشبه الشروخ المتعرجة في جدار الطين خلفها، وجهها صورة مكثفة للشقوق المتفطرة لذلك الجدار، وما بيبي الحجّية إلاّ امتدادٌ له. أما أنفها الغريب ذو المنخرين اللذين يبالغان في تقلصاتهما، فهو أكثر ما يتحرك فيها عندما تقص علينا حكاية العنزة. تترك هذه، صغيرها جنجِل وأخاه جَناجِل في الدار خوفاً من الذئب الشرير، بينما تذهب العنزة الأم لتأتي لهما بالطعام. أوصتهما ألا يفتحا الباب لأحد حتى عودتها، وألا ينخدعا بصوت غريب إلا إذا غنت لهما أغنية السر التي لا يعرفها الذئب:

«جنجِل وجَناجِل... فكوا لأمكم الباب... بالدويس حليِّب... بالكرون عشيِّب... فكوا لأمكم الباب...».

يتملكنا الخدر للنغمة التي لا نملّها أبداً. تدور قصة العنزة حول نفسها، حتى تطلب الجدة من حفيدتها أن تحضر لها وعاء النحاس، فنعلم أن الزيارة توشك على الانتهاء. تشرع العجوز بتمشيط ما تبقى لها من شعر بعد تغميس مشط خشبي مسنن الطرفين في ماء الوعاء، لتفلَّ جدائلها البيض. تفعل ذلك بصمت تام يناقض حيوية الحكاية. ننسل بهدوء من الغرفة وندعها لتأملاتها. في إحدى المرّات، أخطأتُ عندما ذكرتُ لأمي، وأنا عائدة من عندهم، أن بيبي الحجّية سَرّحت لي شعري بمشطها. أقامت الدنيا وأقعدتها قائلة: «**Jesus**، القمل!». لم تفرغ من تأنيبها حتى نصحها أحدهم أن تُدخلني الحمام لتغسل رأسي بالنفط. مُنعتُ على إثرها من زيارتهم لمدة أسبوعين، قضيتُ أولهما في محاولات مزعجة للتخلص من رائحة النفط التي علقت بشعري وغرفة نومي.

هناك مرة أولى وأخيرة لكل شيء!

شاءت المصادفة أن يكون ذلك «الشيء» عُقداً من زهر أبيض. جلست في إحدى الأمسيات قبالة خدّوجة، تحت ظلال خط من أشجار نارنج، نجمع قِدّاحها الرطب الذي تساقط في موعده. نغرس فيه أبرة مُذيّلة بخيط طويل لينتهي مسبحة من عطر. هرولتُ بواحدة منها لأمي. وضعتها لها مفاجأة على أريكتها المفضلة، صاعدة إلى غرفتي لآتي بالمزيد من الخيط فألتحق ثانية بصديقتي في المزرعة. عندما نزلت السلالم بعد فترة وجدتها منهمكة في استقبال صديقتها ميلي التي اعتادت المجيء برفقة أخيها ديفيد كلما فكرَت بزيارتنا، ربما لأنها لا تعرف قيادة السيارة!

ميلي وديفيد إنكليزيان يعملان في شركة كبيرة لتكرير النفط في البصرة. كلما زارا أصدقاءهما في بغداد، مرا بنا في الزعفرانية ليلقيا التحية على أمي. كم تتغير سحنتها وطبقة صوتها أثناء الترحيب. نادتني لأصافح الزائرين وأقول لهما و**hello** على طريقتهم. فعلت وأنا أرقب أذنَي ميلي، صغيرتين جداً كأنهما قوقعتان جميلتان غرستا بمقياس دقيق على جانبي رأسها. كل شيء فيها من القطع الصغير. كتفاها ويداها وقدماها. حتى خيّل إليّ أننا نستطيع أن نتبادل الأحذية! أما ديفيد، الذي تصرّ يا أبي على تسميته داوود، فكان يتبادل قُبَل التحية مع أمي عادة، فأرى عقدة تنبت بين حاجبيك.

جماعة أمي يتبادلون القُبَل بين امرأة ورجل، وجماعتك يتبادلون القُبل بين رجل ورجل فقط، أما نساؤهم فيتجنبنها مكتفيات بعناق بارد، في حين يتبادل نساؤكم الكثير منها. سألوا عنك والرد المتوقع يطوف في أعينهم الملوّنة: «إنه يعمل طبعاً» تجاهلتُ رغبته بمعانقتي، منشغلة بالبحث عن العُقد، فإذا به قد جلس عليه بغير مبالاة وسحقه بثقله. مدت يدها نحوي تقدم لي قطعة من هديتها المفضلة لأمي، أكلة يُسَمّونها مقبرة الذباب. تضحكان للتسمية. مشهد يتكرر كلما أتت بالهدية نفسها. لا أفهم لماذا تكرران الضحكة ذاتها في كل مرة، والأكلة مجرد شطيرة حلوة من عجينة رقيقة محشوة بكمية وافرة من الزبيب الأسود.

طلبتُ من ديفيد أن يترك جلسته لأتأكد. قام عن الأريكة يُعدل شعره الأشقر بيد بيضاء لا يوازي بياضها غير بشرة أمي، فإذا ما تصافحا أكاد لا أميّز حدود أصابعهما. كانت الوسادة مفروشة بوريقات تفسخت عن الخيط، وحبيبات صفر كأنها مُحّة بيض انهرست على القماش. ابتسم ديفيد، جفن إحدى عينيه يقطع نظرة حادة توجهت نحوي. أمي تقول: «لا بأس! المزرعة مليئة بالقِدّاح». عندها تمكن من إنقاذ قِدّاحة صغيرة سليمة تناولها من حافة الوسادة ومرّرها على شفتيه بحركة سريعة خفيفة لا تكاد تُلحظ. انزلقت القِدّاحة من بين إصبعيه لتستقر في

– كولي.
– تعلمينني ركوب دراجة حاتم واصطياد الفراشات.
– الدراجة سهلة، والفراشة أسهل.
قالت ذلك قافزة فوقي تقبلني وهي تصفق:
– هَلا عيني هلا، هَلا يُمّه هَلا، حَلّتْ البركة.

عندما شعرَت عمة زكية أن بقائي عندهم قد طال همّت بإعادتي إلى أهلي. كم أحب هذه اللحظات التي ترفعني فيها عمة خدّوجة عن الأرض بحركة رشيقة سريعة فتُجلسني على كتفها. تتدلى إحدى قدميّ على صدرها، والأخرى على لوح ظهرها. طريقة لحمل الأطفال لم أجدها عند غيرهم. يداي تمسكان بفوطة رأسها. أشعر كأنني قدور اللبن الرائب العالية التي تصفّها الواحدة فوق الأخرى، تسير بها بتوازن عجيب عبر الطرقات الزراعية، عباءتها العريضة تهفهف بأناقة ريفية بلون التراب. لا يحدث هذا إلا في الزعفرانية!

عندما نصل إلى سقف زريبة واطئ، نمر من تحته في منتصف الدرب، حيث يتدلى ضوء عار كأنه بَصَلة مضيئة يتزاحم حولها البعوض. أرقب الحشرات الناعمة تتنافس بأزيز رقيق مزعج، لتحظى بلعقة من الضياء الباهت الذي ينير من الظلمة الحارة حيزاً بحجم كرة قدم. تنحني زكية قائلة: «إحني راسك». كانت تخاف عليّ من الكهرباء كلما مررنا من هناك. أخيراً تسلم أمانتها للحارس.

بعد قليل أجدني في فراشي، ينفذ إلى غرفتي شريط نور من تحت الباب، وإصبع دخان يحمل ضحكات النساء عبر ثقب المفتاح.

لازمة جديدة التقطتُها من طالبة تصغرني سناً في اليوم التالي أثناء عودتي من المدرسة. ظلت تغنيها طوال جولة الباص الأصفر. وجدتني أرددها بدوري حتى دخلت باب البيت الأمامي: «كاش كيش... سافه ران... ست زبيدة خان...». نجحت هذا الفصل لكني لا أتذكر كيف نجحت. كنا نحفظ الدروس عن ظهر قلب، لكن كل ما يبقى في ذاكرتي هو تلك اللازمات، تعلق في رأسي رغماً عني. أكره الرياضيات والأرقام. عندما تدخل ست جوليت لتبدأ بجدول الضرب، أبدأ أنا بهمس: «فَسوه فِسَندي... محد فِساها... غير هو الأفندي...».

كانت المدرسة دوامة من أغانٍ ومعلّمات قبيحات وأرقام مملّة. أما غربة يومي الأول فقد علمتني حقيقة التفاوت بين الأحجام، حتى تهيأ لي أن طفولتي راحت تنتهي عندما أصبحت الطاولة الصغيرة التي كنت أتكئ عليها، لأقف أو أمشي، تنقلب بسهولة بركلة خفيفة من قدمي. فيما بعد اكتشفت أن لعبة الأحجام كانت مهمة في دروس الرقص. فتحت الباب «كاش كيش...» لأسمع صوتك يا أبي قادماً من المطبخ. حوار بإنكليزية جافة:
– قلت لكِ لأ يعني لأ.
صوت أمي الرفيع:
– إنها فرصتي للعمل، وأصبح للشركة مكتب في بغداد.
قلتَ بنبرة أستيطع أن أميزها حتى لو كنتَ تناقشها من وسط المزرعة:
– لست بحاجة إلى عمل، أنا أعمل جهدي في المشروع، سأوفر للبيت كل ما تحتاجينه. إنها مسألة وقت.
قالت بإنكليزية بدأت أفهمها جيداً:
– نعم يا عزيزي...
إنّها لا تقول عزيزي إلا إذا كانت متوترة جداً. قالت:
– هي مسألة وقت فعلاً، إلى متى سأبقى في هذه البقعة البدائية لا أفعل شيئاً ولا أتكلم لغتكم؟
قلتَ لها:
– حتى تكبر الطفلة لترعى أمورها بنفسها. إن تربية البنات أصعب من الفتيان في هذا الجزء من العالم. نحن لا نهملهم صغاراً. لا بد أنك تعلمت هذه الحقيقة طوال الفترة الماضية.
قالت وأنا أقترب من المطبخ ببطء:
– الطفلة الطفلة! هل ستبقى هذه الحجة أبداً؟ أنا بحاجة لتغيير، والشركة بحاجة إلى سكرتيرة. أجيد الطباعة، فلماذا تمنعني؟
– يا مدام، حاولي فهم موقفي. أمس تركتك تشربين كما يحلو لك. وتغاضيت عن رقصك المائع مع ذلك الأجنبي داوود أمام أصدقائي وزوجاتهم، ولا أعترض على مخالطتك أصدقائك متى شئت. سأرى إلى متى ستتحججين بميلي! لكني أرفض بشدة أن تعملي خارج الدار. لست بحاجة إلى ذلك خاصة والطفلة في مرحلتها الابتدائية.
– تتكلم عن الشرب والرقص كأنك تتفضل عليّ، ماذا عن أصدقائك أنت الذين يملكون زوجة للدعوات وأخرى للبيت؟!
– اختلفنا للمرة المليون. دعينا من انتقاد التقاليد ومن مقارنتها بالذي ترينه تحضّراً. أرجوك جرّدي لي تفكيرك للحظات من كل شيء وركّزي معي. المتناقضات لا تهم، فكل ما أريده لابنتي هو أن تصبري معها حتى تكبر، مفهوم؟

فجأة شهقة قصيرة منها، وسكت النقاش. لا أعلم ما يجب فعله. لم أرها تبكي في حياتي، لكنني سمعتها بالتأكيد من خلف الباب. ربما دموعها بيضاء كبشرتها. لم أشعر بشيء! لمحتَ طرف تنورتي فقمت لاستقبالي ومنعتني من الفرصة الوحيدة لأراها تبكي. أغلقتَ الباب بسرعة. تركتها في الداخل، ودعوتني إلى غرفة نومك فوراً.

لم أفلح في اللحاق بك وأنت تصعد السلم إلى غرفتك في الطرف البعيد من ممر الطابق العلوي. قامتك السمراء تقطع المسافة بخطوتَيْ لَقْلَق. سريرك الطويل يحتل الزاوية اليمنى ملاصقاً للجدار، إلى جانبه التلفزيون الصغير على طاولة مربعة تحت إحدى أرجلها الخشبية قطعة ورق مقوى طُويت مرات عدة، وحُشرت هناك لتمنعها من الاهتزاز. الجهاز مفتوح دائماً. أريكة ذات مقعدين تستلقي تحت النافذة الوحيدة في الجدار المقابل للمدخل، تتقدمها طاولة واطئة مغطاة بصحف وقصاصات وأوراق عمل. كل شيء كان فوق كل شيء. ألمح كدس مطبوعات أتبين عنوانها وأنا داخلة «الوقائع العراقية». كتاب عن الغذاء والتغذية ومقالات عن طاقة الشمس والطاقة الخضراء. ما عدا ذلك فجدارا الغرفة الآخران عبارة عن رفوف والمزيد منها تصطف عليها أكبر كمية علب رأيتها في حياتي.

علب بحجم إصبع، وأخرى بحجم مقعد. أشكال من ورق مقوّى مطبوع عليها أسماء غريبة تفوح منها عطور أكاد ألعقها في الهواء. أسطوانات حديدية مكتوب على غطائها «مثخنات». أكياس من ورق فضي مقورص من جانبيه، ملاحظة بخط أحمر «أبعد عن أشعة الشمس المباشرة»، «مثبتات طبيعية». دوارق بلاستيكية غامقة اللون تشبه أوعية الدواء السائل، ذات تحذير واضح «تجنّب الرطوبة العالية». على الصندوق بجانبها كلمة «صمغ اللحاء». أكياس نايلون شفافة، أعناقها ملومة بحلقة مطاطية، ينفذ من كرش كل كيس ألوان لا أستطيع التصديق أنها يمكن أن توجد على هذا القدر من التدرّج.

فوق أحد الرفوف العليا يتزاحم رتل من أنابيب زجاجية طولها لا يزيد عن ستة سنتيمترات، ابتلعت في داخلها أجمل المساحيق السكّرية. أشعة الشمس اخترقت الأصابع الزجاجية المتروكة قرب النافذة، فبدت محتوياتها كبلورات نصف ذائبة في محلول مخفف من غيوم زرقاء وقطن، كأنها طيف من شذر خجول تمكن أحدهم من الإمساك به فوزّعه بين تلك الأنابيب. ثقب صغير في طرف أحد الأكياس المصنوعة من ورق أسمر، كان ينفذ منه طحين أخضر كأنه يهرب من مضيق ساعة رملية، مُحدثاً تلاً بحجم بندقة نمت على الرف أمامي. عندما قمتَ بتشغيل المروحة تناثر غبار البندقة الخضراء، خنقتني عطسة مفاجئة:
– ما هذا؟ ألا يجب نقله إلى كيس سليم؟
تقلل من سرعة دوران المروحة. لسبب ما مروحة غرفتك تعمل





الفصل الثاني

تعلو خديكَ رغم سمرتكَ. لم أر أمي من قبل بتلك الأناقة، مع تعليقاتكَ المتواصلة حول قِصَر ثوبها. يقولون إنها جميلة. فهمتُ أن ذلك يعني شديدة البياض. أما أنا فأستطيع وضع إصبعي على كل منطقة من جسمها، حيث يتراءى من تحت جلدها شعيرات حمر ناعمة للغاية تحت أبطيها، أو متناثرة على مشط قدمها، تشبه جذيرات أطلقَتها حبات حمص، كنتُ قد وضعتها على فراش قطني منقوع بالماء، في إناء يستلقي عند شباك غرفة نومي. أشياء لا يمكن الانتباه إليها في حفلة!

أمي أخبرت ميلي وديفيد عبر الهاتف قائلة:

– الدعوة تبدأ في تمام الساعة.

أنتَ تدعو أصحابكَ في العمل:

– الجلسة تبدأ من السابعة وما بعدها، خذوا راحتكم.

أمي تتذمر من عدم دقة المواعيد الشرقية. أنتَ تشرح لها:

– هكذا تكون العزيمة، عيب أن نصرّ على وقت محدد بالدقيقة، لسنا في إنكلترا يا عزيزتي.

حضر الجميع ما بين السابعة والثامنة، ما عدا طبيب العائلة الكهل الدكتور جورج وخطيبته الشابة، فقد استُدعي لطارئ في أحد بيوت المحلّة الصناعية.

امتلأت صالة الاستقبال بستة من رجال الأعمال، وزوجات ثلاثة منهم. ترك أحدهم زوجته الثانية في البيت، حسب اعتقاد الآخرين. راحت ضحكات النساء تشق خرائط الدخان السابحة فوق الرؤوس. أرقبُ الحركة من نهاية السلم، حيث اخترتُ لنفسي موقعاً يسمح بأن أشرف على منظر الجلسة من فوق، دون أن يلحظني أحد. يجلسن واضعات ساقاً على أخرى، العليا تهتز باستمرار، والساق السفلى ثابتة، يخترق كعب حذائها المدبب السجادة تحتها، حيث تسقط سهواً قشرة حَب أو فستق أو نفخة من رماد سكائرهن. الرجال واقفون، يدٌ في أحد الجيوب، وأخرى تحمل كأساً ترتفع عالياً يميناً ويساراً فتتكتك مُكعبات الثلج مع انفعال المتحدثين. أبي، أنتَ تخدم الجميع. ستسهرون حتى الصباح لكنكَ لن تنسى غداً ضفر جديلتي قبل إرسالي إلى المدرسة. فغداً يوم إعادة شهادتي. أنتَ تصرّ على توقيعها.

ميلي. أحاول متابعة أُذنَيها الصغيرتين من بعيد، إلا أن ديفيد يسد المشهد عني بين فترة وأخرى بكتفيه العريضتين، فتختفي أُخته الناعمة في الحال. تزداد حركة الأحذية اللامعة، تكاد تعكس تنقلات المدعوين في الغرفة. تتراقص فساتين الحرير، تتقاطع وجوه ترتدي نظارات، وأخرى تضع أحمر شفاه، يتصاعد كلام لا أفهمه. بعضهم يتحدث عن تجفيف حمضيات المنطقة لتحويلها إلى نكهات صناعية. بعضهم يتغزل بسمكة «مسكوفة» مَشوية تتوسط مائدة الطعام. بعض الزوجات يتكلمن عن روعة «أوروزدي» السوق التجارية الجديدة في بغداد. أمي تتوسط ديفيد وميلي، يتناقشون عن البصرة وشركة النفط. أنتظرُ انشغال الجميع كي أقصد المطبخ. سأفتح قِدر الذرة المسلوقة. سأسحب منها قطعتين وأتسلل إلى المزرعة.

أدندن في الطريق ما تعلّمته في المدرسة. عندما تثقب أغنية رأسي، أفقد السيطرة عليها. تكرر نفسها مثل أسطوانة مخدوشة، لا أستطيع التخلص منها حتى أتعلّم أغنية جديدة بنغم مختلف، وهكذا. «وان تو ثري ألبي... سميرة بنت الجلبي... شعرها أصفر ذهبي... وتصيح يُمّه لبلبي...». قبل أن أصل إلى منتصفه، سمعتُ صوت سيارة تقترب من البيت، لا بد أن الدكتور وخطيبته قد وصلا.

كانت خدّوجة تحوم حول كوخهم الثلاثي بانتظار ما سأحمله إليها من الحفلة. قفَزَتْ لقدومي تستقبل كوز الذرة المسلوق بلهفة. جلسنا على البساط الملوّن في حوش دارهم بعد أن غادرته العائلة تاركة بقايا عشائها. المنقلة ما تزال دافئة يعتليها إبريق الشاي الفارغ. صينية انقلبت على جانبها أقداح يسيل منها ما تبقى من سائل سكري. ثمة وريقات شاي مبللة ملتصقة بحافاتها الزجاجية الرقيقة، تعترضها بصمات أصابع ملوثة برماد الفحم. إناء السكر مثقَل بقطعة من طين التصقت بقاعدته. قالت لي خدّوجة إن مصلح الخزف أحد أقاربهم وأرتني كيف رفا لهم إبريقهم.

جاءت عمّة زكية. يسمونها عمّة كِيكة لضحكاتها المشهورة المتقطعة كي كي كي. حملت الصينية من أمامنا إلى الداخل فانصرفنا إلى التهام الذرة. راقبتُ خدّوجة كيف تتغزل بأكلة جديدة بين يديها. راحت تتلمس بسبابتها خطوط الحبوب الصفراء المصطفة بانتظام. تُقلّب البذرة تتأملها من جميع الجهات، تلعق الملح المذاب في زواياها ثم تقوم بامتصاص طرفيها. عندها تتحسس بطرف لسانها المدبب تلك الرصعة الصغيرة التي تتوسط كل حبة. أخيراً تشرع في أكلها مُحدِثة أصوات مضغ ومص، لو أحدَثتُها أنا في حضرة أمي لمنعتني من مشاركتها المائدة. أحد طقوس استيائها: «اصعدي إلى غرفتك دون عشاء»!

يصل إلينا صوت طفل يبكي من نافذة الحجرة التي دلفت إليها زكية، عمتها الكبرى. وضعت زوجة الخال الأصغر مرة أخرى. المولودة الجديدة اسمها هدية. استمر بكاء الصغيرة مما جذبنا إلى النافذة في اللحظة التي سحبت فيها عمة كِيكة قطعة القماش لتستر هدية وأمها من عيون الفضوليين، إلا أن خدّوجة صممت على حضور الرضاعة. نظرت إليّ قائلة: «تعالي شوفي الطفلة». دخلنا. لم تعترض المرأتان المنشغلتان. جلسنا في الزاوية نتفرج. كانت الرضيعة في مهد محاط بقضبان حديدية مبقّعة، تعتليه وردة بلاستيكية زرقاء اللون، تخترقها سبعة ثقوب. هذه التعويذة المسماة أم سبع عيون ستحمي الطفلة من الشر والحسد. ترفع الأم الغطاء عن المخلوقة حديثة الولادة. تُبعد غطاء الحرير الصغير عنها، هذا الذي كان يوماً ما غطاء أمها يوم عرسها، حتى تهرأ في استخدامات كثيرة منها غطاء لهدية.

تحتوي الأم ابنتها بين ذراعيها. تُخرج ثدياً متورماً من فتحة دشداشتها، تلقيه على وجه المولودة. تمصّ الرضيعة حليب أمها بكل قواها وقد أنهكها الجوع. ثمة ذبابة تقف عند زاوية فمها الصغير، وأخرى تطير حول الحلمة البنفسجية. لا أحد يأبه بالذباب هنا، خلافاً لما تفعله أمي لو سهوت عن إغلاق باب المشبك خلفي. ثم تهدأ الأَجواء بانتظام أنفاس هدية، فأسأل خدّوجة عن الأساور التي تضعها الطفلة. كان يلفّ معصميها، اللذين يشبهان قضيبين ناعمين من عجين، سواران من خَرَز أسود وأبيض منضّد بدقة. الأسود بعد الأبيض والأبيض بعد الأسود دون خطأ

أجابتني خدّوجة:

– هذه أساور شحم لحم.

– لماذا تضعها؟

– حتى تسمن الطفلة وتصير قوية.

– إذن لماذا لا تضعين مثلها يا خدّوجة لتصبحي قوية وكبيرة؟

ثم أضفت:

– إذا وضعتِها فترة طويلة فقد تصيرين بحجم السعلوة ربما.

اقترن حاجباها وسط وجهها الأسمر:

– من كال أريد أصير سعلوة؟!

– وماذا تريدين؟

– أريد أروح للمدرسة.

– لكن هنا أحلى من المدرسة بكثير!

اعترضت قائلة:

– لكن أنت تقرين وتكتبين، وأنا ألمّ الحشيش للبقر وأخبز لأمي.

– سأعلمك القراءة بشرط.

قاطعتني:

– لكن ما عندي حذاء.

قلت:

– سأعطيك زوجاً من أحذيتي، بشرط.





قبل النوم: «أغمضي عينيك، وتخيلي مجموعة خراف تتجول أمامك، حاولي عدّها وسترين كيف أن نومة هادئة ستأخذك».

لكن خدّوجة لم ينفع معها اقتراح الخراف المتجولة، أو فكرة رضاعة دجاجة. كما تعلمتُ أن ما يضحكني لا يثيرها، وأن ما يؤلمها غريب عني، مثلما حدث عندما ماتت بقرتهم نجمة فحزنت العائلة كلها. أشفقت على فقدهم حيوانهم المسكين، لكني لم أفهم كم يمكن أن تعني لهم بقرة. أول مزحة تعلمتها في حياتي نقلتها لها:

– خدّوجة سأحكي لك نكتة.

اعتدلت في جلستها لتصغي:

– كولي.

– حبتا طماطة عبرتا الشارع. وصلت الأولى إلى الرصيف بأمان فاستدارت لتجد أن رفيقتها قد دهستها السيارة. تنهدت قليلاً ثم قالت لحبّة الطماطة المدهوسة: باي باي معجون.

لم تضحك! عندها فقط، أدركتُ أن بعض الأشياء بدأت تتغير!

ست سنوات في المزرعة. أكاد لا أصدق أن إصرارك على عدم تركنا المكان جرّنا للبقاء فيه طوال تلك المدة. لا أعلم كيف تحملت أمي الحر، خاصة أن كل صيف بدا أشد حرارة من سابقه. مع ذلك أخذت أمي تشغل نفسها ببعض التعديلات داخل البيت، فتارة تعيد طلاء جدران الطابق العلوي. بعد فترة، تهجم بمشروع رسم زخارف ونقوش على الطلاء الطازج لجدران الطابق السفلي. وتارة تقضي أياماً بشن حملة حرب على دودة الأرضة التي تنخر السياج الداخلي للحديقة. تختفي في غرفة معدات الزراعة، تعبث بين رفوفها بعلب تصدر خشخشة، تخرج حبوباً وردية اللون، تشبه بذور حنطة محقونة بسم زهري لقتل الفئران، اسمها التجاري «فتّاك». تتفحص قناني معدنية تفرز رذاذاً قاتلاً للحشرات اسمه «طرّاد»، هذه العلامة التي أطلقتها على أحد الطلبة المزعجين في صفي بعد أن طارد نصف فتيات المدرسة.

أمي تُحضّر الحقن الطبية البلاستيكية لتملأها بالنفط، وتغرسها في خرائط دودة الأرضة المنتشرة هنا وهناك. تنتزع كفيها المطاطيتين، وتتركهما بجانب قناني الغاز، تلك الشخصيات الأسطوانية السمينة التي تتدحرج عند مطابخ كل البيوت بأعناق قصيرة منبعجة لشدة الاستعمال. أما مصائد الفئران الكلاسيكية فلا يخلو المخزن منها. هناك، بالطبع، موسم غسل الستائر والملاءات، وموسم تنظيف السجاد، أو تنظيف مدافئ علاء الدين يعينها على إدخالها إلى الحوش الخلفي بائع النفط بيديه السوداوين.



تنظيف مكيفات الهواء، تحضيراً للصيف، هو طقس من لبّاد طري وماء نقي. إنه موسم حضور ديفيد وميلي لمساعدة أمي. راقبتهم العام الماضي من شباك غرفتي. بعد أن فرغوا من أعمال التنظيف، أخذوا يرشون بعضهم بماء بارد ينطلق من خرطوم مطاطي أخضر يرقص كالأفعى بين أرجلهم الحافية. كنت مصابة برشح صيفي حينها، فمنعتني أمي من مشاركتهم الصخب.

أودعني باص المدرسة باب البيت وابتعد. اتجهت نحو غرفة المخزن الذي ينتهي عند مدخله ممر الحديقة الضيق. بدأ الموسم الجديد. لم أجد أثراً لخرطوم الماء أو لصديقيها. بعد قليل سمعت كركراتهم الإنكليزية تأتيني من فتحة صغيرة أكلت حافاتها الرطوبة في جدار المخزن الخارجي. الباب مغلق، لم أجرؤ على أن أتدخل في طقوسهم. اقتربت من الفتحة. أرمي نظرات تمسح زوايا المخزن. هذا العمود الجانبي اللعين يحجب نصف الرؤية، فلا أرى غير الجدار الداخلي العريض أمامي. تتوتر عيناي إلى اليمين واليسار، أحاول أن ألعق ببصري مصدر الكركرات. أنصت. الضحكات المتقطعة تأتي من خلف العمود، تتداخل بأصوات غير مستقرة.

كانت الشمس تخترق شباكاً صغيراً عند حافة سقف المخزن في مكان اتصاله بالجدار الشرقي للغرفة. أشعة جانبيه اصطدمت بأشياء خلف العمود لتعكس ظلالها على الجدار المقابل. من بينها ظلال قنينة الغاز، والكرسي الهزاز المكسور، وخزانة المعدات. فجأة! انبثقت ظلال دون زوايا. ببط، ارتفع أمامي على الجدار ظل بكتفين عريضتين، يحتوي ظلاً بشعر ملفوف للأعلى على هيئة كعكة. أين ميلي؟ الظلال تتقاطع. الكعكة تتدحرج. الشعر يتهدل. يزداد الاحتواء. الكرسي يضطرب. يتشاركانه. الحائط أمامي مسرح لظلال تتلاطم. الفتحة الرطبة تضيق على مقلتي. ميلي ليست هنا. الكرسي المكسور يهتز، يهتز، يهتز. أزرع أثخن إصبعين في أذنيّ. أقتلع مقلتي من فم السمكة الرطب. أركض.

ست سنوات وأمي تحارب الوقت بأنواع النشاطات. أصابها هوس استبدال قطع أثاث جديدة غالباً ما تكون مستوردة بقطع الأثاث القديمة التي تراها أمامها، وأنت لا تعترض إطلاقاً. طلبَت منك مرة أن تستبدل بأثاث المطبخ كله طقماً فخماً حديثاً، فقلت لها بكل برود: «لما لا؟!». وهكذا، بدأتُ أُفاجأ بشيء جديد يركن في البيت بين فترة وأخرى. زاوية بعد أخرى تتبدل. كل فراغ امتلأ ما عدا غرفتك التي ازدادت فيها أكداس المساحيق، وعبوات النكهات وتكالبت على أرضيتها المجلات وكشوف المختبرات، لكنها لم تتغير.

عندما اقترح ديفيد على أمي هواية الاعتناء بالنباتات الداخلية، بدأت الأغصان تتدلى من السقف، وتنبع عند كل محط قدم. أصبح كل ركن يحمل نبتة فصلية، صباراً، متسلقاً أو زاحفاً. يبدو أن سريري هو المكان الوحيد الذي تجاوزت أمي بذره في طريقها!

جو غريب في هدوئه، لم آلف خفوت الأصوات في بيتنا، ربما النباتات تمتص الصوت. التزاماتكَ العملية تزداد. تختفي سيارتكَ الجديدة صباح السبت. ألوّح لكَ من باص المدرسة الأصفر متجهاً إلى المدينة، وأنتَ تسلك الطريق الزراعي نحو مشروعك. لا نلتقي حتى مساء الخميس. أمي لا تبالي أثناءها إن كنتُ قد قضيتُ عصرية أو إثنتين خلسة مع خدّوجة عندما تكون هي نائمة. أمي لم تعد تبالي بأشياء كثيرة، وتفاصيل ناعمة مثلما كانت في السابق. عندما تتنقل بين أرجاء المنزل، يُهيّأ لي أنها تطوف على فراغ ضئيل يفصل أسفل قدميها عن الأرض تحتها. يبدو أنها فقدَتْ القدرة على المشي مثلنا، لا تصدر أدنى صوت في تنقلها كأنها تدوس على وسادة من هواء. أنظر إليها. أرى وجهها في مكان، وتعابيرها في مكان آخر، وكأنها شيء نَسيَته في الغرفة المجاورة. بات من الصعب أن تجمع أكثر من انفعالين خلال النهار في محيط وجهها الذي يطل كثيراً في المرآة وهي تصعد السلم أو تدخل الحمام.

لم تعد أمي تُصِرُّ على تعلّمي إنكليزيتها، وبدأت تُحسِن استعمال بعض المصطلحات في الفترة الأخيرة، فتُفاجئنا مثلما فعلَتْ مرة عندما أتيتُكَ بدعوة من مدرستي لاجتماع للأهالي قرَرتَ أنتَ أن تحضره. وضَعتْ يدها على خصرها، اعترضت قائلة: «ليش آيني» قاصدة «ليش عيني» مصرّة على أن تحضر هي الاجتماع أيضاً. انفجرنا ضاحكين مما كسَرَ قليلاً من وجوم الأيام الأخيرة. إلا أن حالة شرودها تلك لم تدم طويلاً، فقد اتصل أحدهم من المختبر في مساء أحد أيام الأربعاء يطلب منها الحضور فوراً إلى الموقع. كانت سيارة الإسعاف قد نقلتك إلى المستشفى قبل دقائق. تكثفت غيمة قلق على جبينها. لم أرها على هذا القدر من التركيز من قبل. انقضَّتْ على حقيبتها متجهة إلى الخارج. طقطق كعب حذائها حتى الباب الأمامي. لقد اختفى الفراغ الضئيل! قالت دون أن تلتفت: «**Wait by the phone**». وخَرَجَتْ.

تغيبتَ عن المزرعة أسبوعين كاملين لم أرَ خدّوجة خلالهما بعد أن قلتُ لها في اليوم التالي: «بابا مريض». ترد عليَّ دَلّة الواقفة بجوارها: «عنده العافية يُمَّه ويكوم بالسلامة». ثم جرّت ابنتها خلفها. بعد يومين وصلت إلينا قارورة حليب طازج من بقرتهم الجديدة التي سموها نجيمة. انتظرتكَ، لم أستطع دخول غرفتكَ والمفتاح في جيبكَ يوم أُغميَ عليكَ في المختبر. كنتُ أشمُّ رائحة النكهات من فتحة قفل الباب، ثم أمضي صعوداً أو نزولاً. دخلتَ علينا أخيراً بعد انتهاء علاجكَ بإشراف الطبيب الكهل الدكتور جورج، دون خطيبته هذه المرة، وأنت تدعوه للدخول: «تفضل أبو صلاح، تفضل». ذهلتُ للشحوب الذي أحاط ابتسامتكَ. كانت أمي قد هيأت سريراً في الطابق السفلي. كانت الإرشادات تفرض أقل حركة ممكنة لأسبوعين آخرين. الدكتور يقول لك: «لا تنسَ. القلب ليس لعبة». أمي تكلم الكهل في الممر بإنكليزية دون تردد، وهو يجيبها دون تردد، يتفاهمان دون حركات. تسللتُ إلى حيث تستلقي. لم أعتد على فكرة عدم انبعاث رائحة فاكهة من ملابسكَ. جلستُ على الفراش قريبة من وجهكَ. ارتعَشتْ دمعة في زاوية عينكَ اليسرى.

بعد عدة أيام، عندما أعلنت أمي أنها ستتعلم قيادة السيارة، لم تتشاجرا. لأول مرة لم تتشاجرا! ولأول مرة أيضاً اكتشفتُ أنني أفكر! تعلمتُ أن أفكر ببطء مثلما تتعلم أمي قيادة السيارة. رحتُ أفعل ذلك في غرفتي، وفي المدرسة، وحتى في المزرعة.

عكس البقية، فهي تدور بسرعة على الرقم 1 ثم تبطئ على الرقم 2 وتتباطأ على الرقم 3. قلت:
– ذنب الكهربائي. لا، لا داعي لكيس آخر فأنا سأتخلص من هذه المادة. إنها خليط الكيك الجاهز المطعّم بقشور الليمون الأخضر. لم ينجح في التجربة، وسنلغيه من مخطط مشروعنا.

ظلّت كلمة مشروع تمتزج بلازمة كاش كيش وعطر حلاوة الجزر التي بدأت تدور في رأسي. أحاول أن أربط بين بكاء أمي في المطبخ والمصطلح الجديد الذي تريدني أن أتعلمه عن شيء اسمه حامض وآخر اسمه قاعدة. هذا الغبار السكري سيتحول إلى عسل في رئتيّ إن استنشقته بقوة. أمس انتهيت من قصة «أليسْ في بلاد العجائب». تعلمتها بإنكليزية أمي. لكنه هنا ذلك الأرنب الأبيض. يختفي خلف الرفوف، يحمل ساعة جيب، على عجلة من أمره يتقافز بين الأوراق والأكياس والعلب. ينتقي ألواناً ساحرة ومُطيّبات وعطوراً ليصبغ بها الطريق الذي ستمر فيه «أليسْ» في حلمها القادم ربما!

تسألني:
– نجحتِ أليس كذلك؟
– نعم ألَم توقع الشهادة بنفسك!
تجيبني بشرود قائلاً:
– صحيح يا شاطرة.
تجلسني على الأريكة بجانبك. تمسك يدي قائلاً بنبرة أخافها عادة:
– أريدك أن تسمعيني جيداً يا ابنتي، أنت كبرت وأصبحت تتفهمين. أريدك أن تنجحي في المدرسة كل سنة لأوقّع شهادتك وأنا فرحان. لا تهتمي بأي شيء آخر غير القراءة والواجب البيتي. أهم شيء أن تكوني متفوقة على الصف.
– لا أستطيع أن أكون متفوقة. ماما لا تدرسني في البيت لأنها لا تفهم العربي. كل صديقاتي المتفوقات يدرسونهن في البيت.
– إذن أنا سأساعدك.
– متى؟ لا تكون هنا عندما أعود، وعندما تعود أنت أكون أنا نائمة.
– إذن يوم الجمعة.
– الجمعة! ماذا عن خدّوجة، متى سأراها؟ كما أنني وعدت خدّوجة أن أعلمها القراءة.
فركت جبينك بأصبعيك لبرهة. فجأة، كأنك وجدت الحل:
– إذن لا أريدك متفوقة كل سنة، فقط ناجحة.
فاتفقنا.
كنت قد حبست سؤالي ونحن نصعد السلم:
– بابا، لماذا تبكي أمي؟
قمت عن الأريكة وأدرت مفتاح التلفزيون فأغلقته:
– إنها لا تبكي.
– بلى، سمعتها وسمعت الشجار. هي تريد أن تعمل مع ميلي وأنت ترفض.
– أمك تريد أن تعمل لأنها ضجرة ولا تحب المزرعة. الدنيا حر عليها، لم تعتد على الجو. أما صديقتها ميلي فإنها أشطر منها. لا يمكن لأمك أن تصبح مثلها. أمك مكانها هنا معي، معنا، فلا تقلقي.
– بل ستتركنا. سمعتها على التلفون مرة تقول إنها ستترك هذا المكان يوماً ما.
قلت بتشنج:
– لا، فأين تذهب؟
ثم أضفت:
– ليس لها أحد.
– قد تأخذني معها.
قاطعتني بانفعال:
– مستحيل، لن تذهبي إلى أي مكان.
أضفت:
– غير المزرعة، فكيف تتركين أصدقاءك عند النهر؟
– وكيف ترحل هي وحدها؟
– كفانا من هذا الحديث. لن يتحرّك أحد من هنا. أريدك أن تفهمي. صحيح أننا لا نتفاهم على كل الأمور في البيت، فهي لها طريقتها، وأنا لي طريقتي، لكن لن يغير ذلك شيئاً. ستبقى هي تنتظرك في البيت، أنت ستنجحين كل سنة في المدرسة، أنا سأكون في عملي طوال النهار. سيمكث الجميع في مكانهم.
تركتَ الغرفة، وقبل أن تغلق الباب قلت:
– هذا وعد.

حلمت تلك الليلة أنني سمعت محرك سيارة داوود عند باب البيت الأمامي الذي صُفق بشدة. عندما نزلت السلالم إلى المطبخ في اليوم التالي قلت: «صباح الخير مامي». استدارت، فإذا بها ميلي! كان فمها الصغير بلا أسنان، منخرطاً إلى الداخل. شفتاها الرقيقتان مدهونتان بطلاء شفاه بنّي غامق، فهي تحب صرعة الأزياء. قالت لي دون تردد متقدمة نحوي: «أنا التي سأعتني بك من الآن وصاعداً». فمها البنّي المنخرط إلى الداخل كأنه نجمة متشنجة أسفل منخريها، يشبه ثقب الكلب الصغير النحيل التائه في المزرعة المجاورة. بخطوة واسعة مني إلى الوراء، تحول المشهد إلى سحابة، لأجَالِسَ لحظات ذعر في فراشي عند الفجر.

صَدَقْتَ. لم يتحرك أحد من هنا. أمي بقيت تنتظرني في البيت. أنا أنجح فصلاً بعد آخر. أنت تقضي النهارات بطولها في العمل. أما خدّوجة فقد علمتني ركوب دراجة حاتم لقاء حروف الألف والباء والتاء والثاء، لكنها لم تستطع حفظ البقية، ولا التركيز على كتابتها بعد أن وجدت صعوبة في الإمساك بالقلم. مع ذلك علمتني صيد الفراشات. هي تستخدم دشداشتها للانقضاض عليها، وأنا أحاول قنصها بتنورتي. على إثرها قدمتُ لها لعبة جديدة في عصرية أحد الأيام. قصدتُ أكواخهم فوجدت الحجيّة فانوس تنظف الحجرة الكبرى.

دخلت باحثة عن خدّوجة. رأيت المرأة البدينة تتحرك ببطء شديد. تذكرت بابتسامة كيف تسللنا خلفها مرة في إحدى الأمسيات، وهي تقصد البقعة المخصصة لقضاء حاجتهم. تلصصنا عليها، ترفع دشداشتها السميكة وتقبع. ذهلنا لأعداد الوشم الأزرق المنتشر على مؤخرتها التي تشبه تفاحة هائلة بفخذين سمينتين. نقوش وزخارف بَدوية مرسومة على كل شبر من بشرتها، كأنها سجادة مطرزة متنقلة. تبادلت النظرات مع خدّوجة حينها، انفجرنا ضاحكتين على مقربة منها. اعتدلت في جلستها. تنبهت لكركراتنا. نهرتنا، ثم رمتنا بحصاة صغيرة لم تنل منا. سألتها:
– حجيّة فانوس أين خدّوجة؟
قالت بجفاف:
– ما أدري.
– يا حجيّة لماذا تصيدين بيوت العنكبوت.
أجابت على مضض:
– أنظف مخطان الشيطان لأنه يجيب الشر.
قطع لذتي في معاكستها دخول خدّوجة. تركت الحجيّة لشياطينها لأُري صديقتي اللعبة الجديدة. تناولت سلكاً صغيراً على شكل دائرة لها مقبض، مسكت به وغمست الحلقة المعدنية في إناء يحتوي رغوة صابون، فعلق طبقة شفافة من السائل الصابوني مُحدِثة غشاءً غطى محيط الحلقة. قربتها من فمي. كورتُ شفتيّ لأنفخ بهدوء من خلالها، فإذا بفقاعة رقيقة تنمو على الجهة الأخرى. صاحت خدّوجة بفرح «الله»، وراحت ترقبني أنفخ لها المزيد منها. قامت بدورها بعملية النفخ وهي لا تصدّق سيطرتها على حجم البالونة الشفافة. نرقص بين فقاعات صابونية تقفز في الهواء، تبرق على سطحها نوافذ ملوّنة من مزيج مرتعش بنفسجي ووردي وأزرق فاتح تحت الشمس. تنفجر على شعرنا وملابسنا، تطلق رائحة سحرية، أقول لها:
– تعلمنا هذه اللعبة في المدرسة يا خدّوجة.
تهيم وسط الكرات حولها. تطوف أمامها وتتفرقع على طرف أنفها. تقول:
– هنيّالك، أتمنى أروح للمدرسة.

لكنها لم تفعل. فانضمت بذلك إلى الذين لم يتحركوا من هنا لفترة طويلة. كأنك قررت مصائر الجميع يا أبي. ظلت خدّوجة تقضي الصباحات مع أمها، تغسل الملابس، تجمع الحشائش للأبقار، تحمل وعاء الحليب للداخل، وتلمّ العيدان المتيبسة لتضيف إلى كمية الحطب المركونة شيئاً من مساهماتها. تمر بعبيد المختفي خلف الجدار، وقد سرق تبغاً راح يلفّه في ورقة مربعة بيضاء يلعقها ثم يشعل طرفها فتهدده: «اصبر لي، رح أكول لعمي». تتركه لشأنه بعد أن يخرج لها لسانه، مقطباً حاجبيه لتخويفها. تمضي لتطارد جرادة طازجة تستدرجها حتى صناديق تربية النحل، تتذكر لسعة خبيثة من نحلة يوم الجمعة الماضي فتتراجع حتى تجد نفسها ثانية عند الأبقار.
سألتها مرة:
– لماذا تحمل بقرتكم في أسفل بطنها كيساً منفوخاً تتدلى منه أصابع كثيرة؟
أجابتني دون أن تنظر إليّ:
– حتى يكفينا الحليب وما نجوع.
– أمس رأيت الكتاكيت تشرب من أصابع البقرة.
التفتت نحوي ورشقتني بدهشة:
– ما يصير، الفراخ ما ترضع.
– بلى، أنا رأيتها.
أجابتني بحدة دون تردد:
– لا تكذبين! الفرخ ما ينوش ديس البقرة؟!

وَضَعَتْ طفلتي البرّية حداً لخيالاتي من رسوم متحركة كنت أتبادلها مع أمي، فقد كانت تقول لي



الفصل الثالث

البيت الجديد. كان نصيبنا من المدينة بيتاً في الرصافة، في المدخل السابع من شارع العطّار، باتجاه محطة تعبئة نفط أبو قلام. جدار حديقتنا الشرقي مشترك مع بيت عائلة يهودية، يشترك بدوره من الجهة الأخرى مع المستشفى المخصص بكسور العظام. لا أعلم لماذا أصرُّ على أنه بيت جديد رقم قدمه نسبياً، فقد اضطررنا إلى ترميمه وتعديله ومعالجة دودة الأرضة التي تركت خرائط نخرها هنا وهناك. حديقتنا تؤطر شجرة سدر وقفت برشاقة في منتصفها تقريباً. في الطرف البعيد نخلة يافعة لم تجتز إلا قليلاً علو السياج الذي يفصلنا عن الشارع. ميلي وديفيد ساعدا في نقل حاجياتنا. أنت ممنوع من الإجهاد.

لم يتغير إيقاع حياتنا هنا كثيراً عن بيت الخبير. الجو الداخلي يعيد نفسه. تضفر لي جديلتي قبل وصول باص المدرسة. أمي تأكل الفطيرة الإنكليزية بعصير الليمون والسكر، وأنت تأكل قيمر مصلحة الألبان مع العسل المحلي. هي تغسل وجهها بقطعة من قماش مبللة بماء دون صابون ترعى بشرتها، وأنت تعصف في مناديلك خ، خ، خ. ما تزال تفضل وجبة الغداء، تتبعها بانغماسة عاشقة في صحن دبس علامة **A A**، يحتضن بين ثناياه حلقات غنية من طحينة السمسم، بينما هي لا تفوّت ما تسميه شاي العصر، وساندويشتها المفضلة زبدة ومربى.

لم ننته من قصة إيقادك إصبع بخور كل جمعة، وإشعالها شمعة كل يوم أحد. تدخّن هي قبل الفطور، ولا تغسل أسنانها إلا بعده. أما أنت فتفضل مضغ إصبع علكة، أو تنظف ما بين أسنانك بطرف عود ثقاب تقشره أولاً بظِفرك. أنا ألُمّ النبق في دشداشتي، ثم أجلس تحت الشجرة آكله بمفردي. أمي تصف رائحة الثمار الصغيرة بأنها كقيء طفل، خاصة عندما أجمعها في كيس نايلون وأنساها في المطبخ. جاءت نهاية الشجرة عندما قررت أمي أنها ترمي أوساخاً لا داعي لها في الحديقة. حان موعد قطعها وحرق بقاياها، رغم تأكيدك لها أن حرق شجرة سدر نذير شؤم عند أهالي بغداد.

يبدأ يومكَ على مقعد من جلد أسود. غرفتك أكبر من قبل. عدد الرفوف أكثر. إلى جانبكَ طاولة عليها لفافات الحبوب والأدوية. جهاز قياس الضغط يخفي خلفه نصف قدح ماء ينكسر فيه محرار زئبقي. الهاتف بقربك، تطلب أسماء ترددت على مسمعي من قبل، أعرف بعض أصحابها وأجهل بعضهم الآخر تماماً. يبعثون إليك بسائق المشروع مرتين أو ثلاثاً في الأسبوع، أما الأيام الباقية فتقضيها مع تلك البحوث الملوّنة التي تضنيك ليالي. تضعها في مغلفات كبيرة وترسلها إليهم، ثم تتسلم طروداً في نهاية الشهر، وهكذا. أحياناً تتبرع بنقلي إلى المدرسة مع السائق قبل أن تسلك طريق الزراعي باتجاه المحلة الصناعية.

أجدكَ في انتظاري في حديقة البيت، تغرس أقلام ورد الجوري أو ترشّ بذور أعشاب بقدونس في مربعات من طين داكن. عندما أبدأ تمريناتي المسائية على البيانو، أجدك في الحديقة أيضاً تخفف من كثافة شجيرة الياس، أو تخلّص جذع شجرة برتقال فتية من الطفيلي المتسلق الذي يخنقها. إن توقفتُ عن التمرين في منتصفه للحظات، أسمعكَ تنادي من النافذة: «إلى أين؟». كنت تحب أن تسمعني أتمرّن بلا انقطاع ساعة كاملة. عندما تأتي سيرة الرقص تؤكد لي: «ستنمو عضلاتك ويصبح جسمك مثل جسم رجل». تصرّ مستهزئاً على وصف مستقبلي في الرقص بأنه «الرجولة القادمة». عسى أن أتخلى عن هذا الدرب لتحقق أمنيتك في أن تراني عازفة.

لكن سرعان ما غيرت رأيك عندما ناديتُ أمي في ذلك الأسبوع، رافضة بشدة أن تدخل أنت غرفتي بدلاً منها. عندما حضرت هي بكل بياضها، بكيت على فراشي، فوضعت يدها تربّت رأسي مُحدثة ارتباكاً في لمعة شعري. لم أهدأ وساقاي منفرجتان قليلاً، أتهيأ لانتزاع ملابسي الداخلية أمامها. لا أتذكر آخر مرة غيرت ملابسي في حضرتها. أريتها اللباس القطني الأبيض تتوسطه بقعة دم أرعبتني. ابتسمت بهدوء قتلني. أنا أموت وهي تبتسم. أتت لي بكيس يحتوي مناديل ورقية ناعمة. نصف دزينة من وسائل قطنية مصفوفة معقّمة. أعطتني التعليمات لأتجنب تلويث نفسي، ثم جلست ربع ساعة على طرف الفراش تشرح لي حقيقة أمري. أطول ربع ساعة مرت عليّ في حياتي. ألم تمت خدّوجة بسبب دماء خرجت منها؟ خشيت بعدها من أن أكون هالكة كل شهر. لم أغفر لأمي لأنها، بكل بساطة، نسيت أن تهيئني ليوم كهذا. خرجَت من الغرفة وقالت لك: «ابنتك بدأ مشوارها».

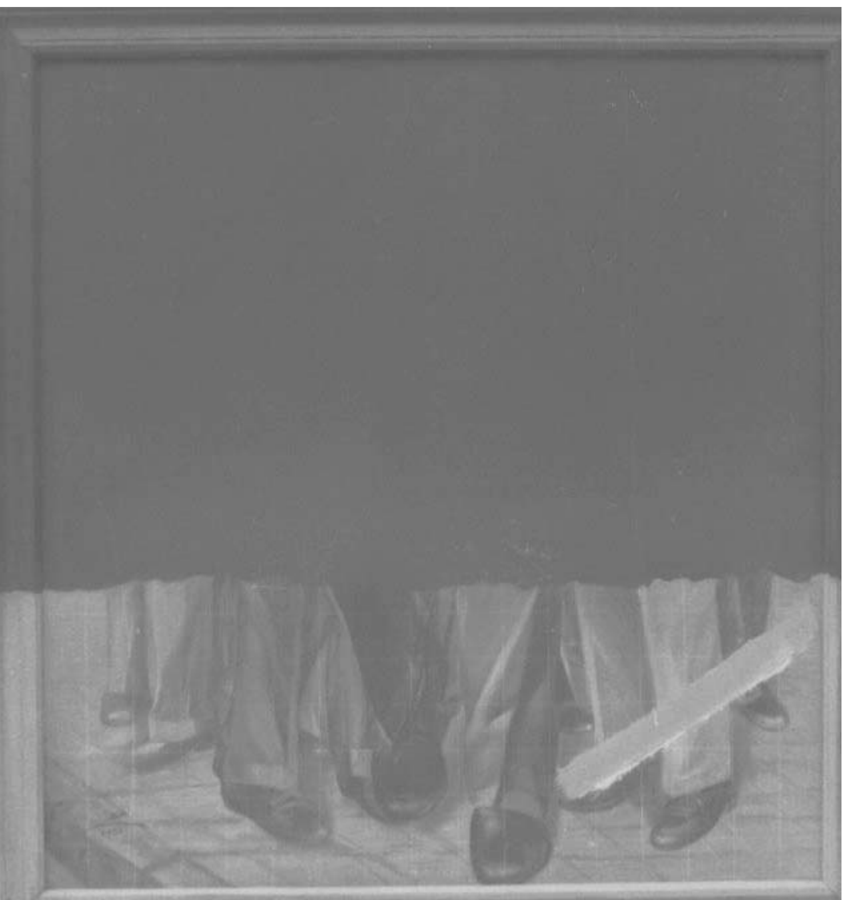
مع ذلك، استمرت تدريبات العضلات. رقصت كثيراً في ذلك الممر، تارة سندرلا وتارة كوبيليا وتارة البجعة المحتضرة. أسلاك الكهرباء كانت تستحيل إلى شرائط احتفالات. المسامير الحديدية تستحيل إلى عيون الجمهور المتفرج. بقع الطلاء تستحيل إلى مفرقعات الأعياد الملوّنة وأنا أقفز «بلييه – ريليفيه» كالضفدعة حتى عتبة المطبخ حيث أمي. غالباً ما أقلّدها في المشي على وسادة من هواء. إنها تدخّن في انتظار أن يغلي الماء. أسألها: «ماذا تطبخين؟». تجيب دونما التفاتة: «معكرونة». أقول: «ثانية؟!». أراها مكبّلة بحبال معكرونة، شعرها خيوط معكرونة، ومن أذنيها تزحف ديدان معكرونة. تسلق عذاباتها في قدر ضغط، فوقتها لم يعد يسمح لها بالمكوث ساعات طويلة لإعداد وجبات متنوعة. العمل يأخذ أكثر وقتها.

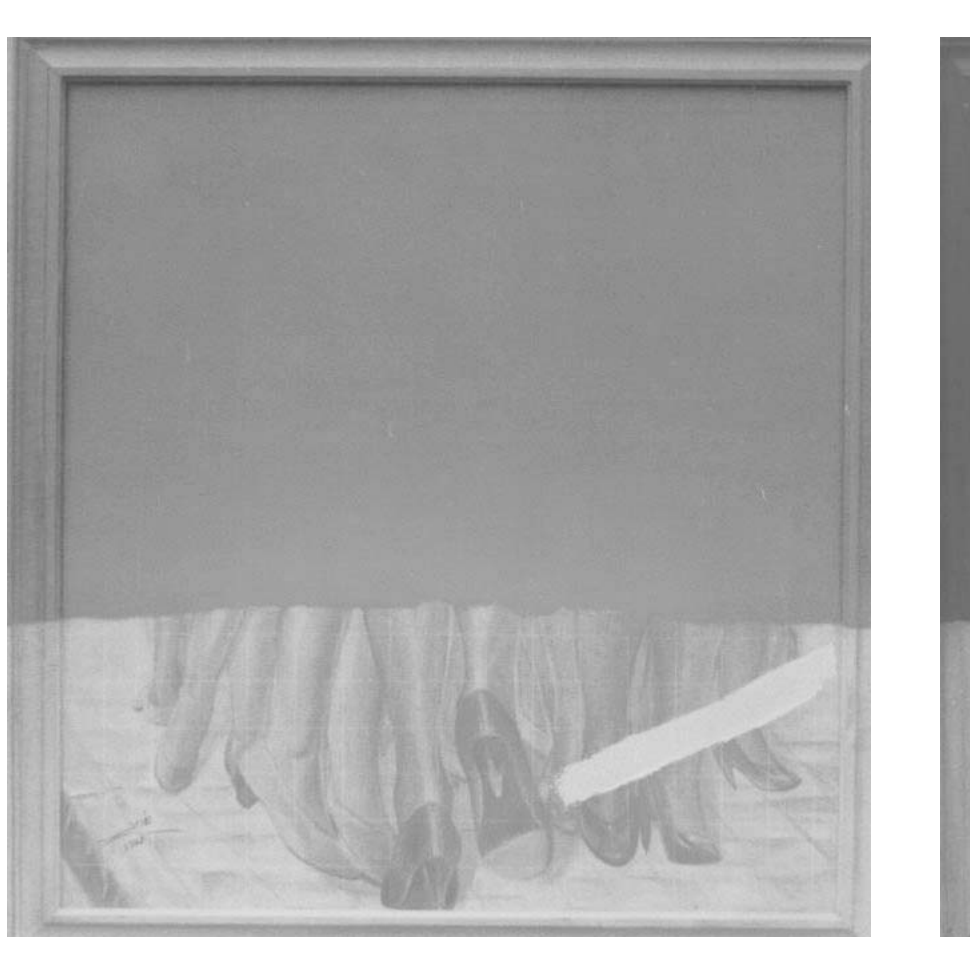
صمام الأمان يصفر لمحاولاتها الأوبرالية المبحوحة في زوايا المنزل محشورة بين شعيرات مكنسة التنظيف اليومي. أتذكر جيداً أول عقاب لقيته منها عندما قلت لها إنني سأكبر لأصبح مغنية مثلها، ثم ندمَتْ واعتذَرَتْ. لكنها لم تتردد في تأنيبي ثانية، وبشدة أكبر، عندما تخلّفتُ مرة عن تدريباتي. أعادتني إلى صالة الرقص عنوة وباب المطبخ موصد في وجهي دائماً. الوجبات الإضافية محرّمة عليّ. تقول لي بإصرار: «لأجل الرشاقة». بسببها أصبح آكل كخنزير عندما أتألم أو أحزن. عادة أوشكت أن تشوه لياقتي. كدت أصرف النظر عن الدخول ثانية إلى قاعة مغلّفة من الداخل بمرايا هائلة، تزيدني حياء وارتباكاً، وأنا أمضي بجوارب التمرين المفتوقة. حتى أَخَذْتَني من يدي مرة، تطلب مني أن أدخل غرفة نومك لأقضي أمسية يوم جمعة معك، بينما كانت أمي تقضيها مع ميلي. قلت: «لماذا لا تشاركينني تجاربي؟ أنا أشعر بالضجر اليوم».

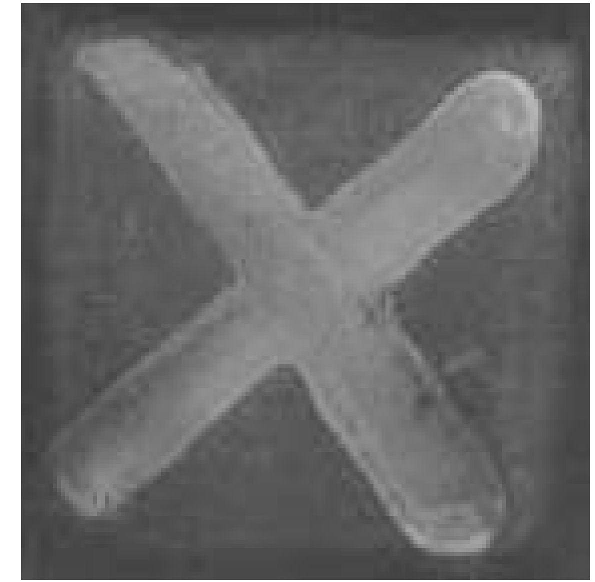
كانت تلك الساعات التي بدأت بضجرك تجربة بحد ذاتها. تقول إن هذا الضجر الذي يولده كل يوم جمعة فيلم الساعة الرابعة المصري وأغنية شمس الأصيل لأم كلثوم من بعده ثم البرنامج الديني، يثقل صدرك. ثم تسأل: «كيف يمكن لهذا الجهاز أن يبرمج كآبة إنسان لهذه الدرجة؟». اقترحت عليّ بعد تنهيدة: «هيا، نحن لا نملك الغد. لنشرب فنجان قهوة ونتحدث». كانت تلك أول مرة أشرب فيها القهوة، وأول مرة أضع فيها ساقاً فوق أخرى وأستمع. أعطيتني حرية صغيرة في جو الغرفة لكي أستمع. قلت لي:

– ابنتي، اسمعي مني، وتعلمي الاستماع إلى الآخرين. ما أقوله لك اليوم ينبع من أنك بدأت تنضجين، وأستطيع البدء بالاعتماد عليك. أشعر أن لدي الكثير الذي أودّ أن أحدثك به. كنت أنتظر أن تفهمي ما أوصيتك به حول فن الاستماع، لأنه سيبقى معك أكثر من الشهادة والباليه والموسيقى والأرقام وحتى الذكريات. أكنتِ تعلمين أن آخر حاسة نفقدها عندما نحتضر هي السمع؟

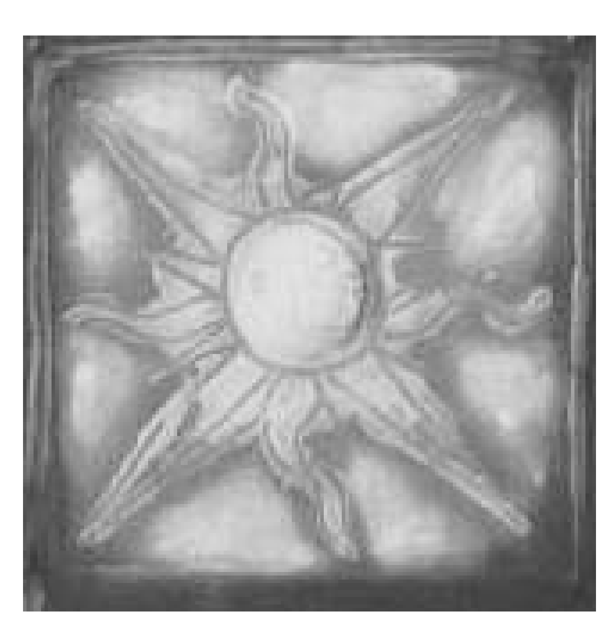
لا أعلم إن كنت تكلمني أم تكلم نفسك، وأنت ترتشف القهوة التي حرمت منها لفترة. خفتُ من هذا الدرس الأول، ودعوتك لأن أشاركك تجاربك أشعرتني أن جديلتي نفد عمرها. يبدأ عالم لم











يأتي يوم الجمعة فأخرج بعد الفطور مع اكتشافي الأخير. أحسستُ بأن لمشيئتي وقعاً جديداً. أفكر، وأنا أسير باتجاه النهر مارة بالشخص الوحيد الذي يرتدي نعالاً ملوناً، غير الرمادي أو الأسود، الذي يرتديه الجميع عادة من نساء ورجال بيوت الطين، امرأة سمعتهم ينادونها خالة رِكِنْ. اسمها مميز مثل نعالها النايلون الأحمر. كانت تقف عند باب الكَوخ الأيمن، تصنع مروحة من قش ملون. تنتج عدداً منها شهرياً لتبيعها عندما يحل الحر. تمر بجانبي بائعة المراوح، أو كما يطلقون عليها «أم المهافيف». تتحرك تكورات جسمها بترهّل تحت الدشداشة الملتصقة بها. فِستْ فِستْ. نعالها النايلون يصدر هسيساً مضحكاً. انتهت تواً من غسل قدميها، فتشبعت مساماته بالماء. على خدها الأيسر خارطة سمراء قَرَضَتْ جزءاً من أنفها، قالوا إنها حَبّة بغداد التي تأكل الجلد في مكان إصابته. لم ألحظها تفعل شيئاً طوال السنة غير حياكة مراوح القش للصيف.

أما أختها سعدية، فَقَلّ ما ألحظها بينهم. هذه الهاربة من عيون الناس تنتظر الزواج. تغطي وجهها حبوب دهنية حمراء، وأخرى مصفرّة تتقشر على وجنتيها. بشرتها تكتظ بانبعاجات تخيفني قليلاً. وجدتُها ظهر ذلك اليوم تحت شجرة التوت الوحيدة في طرف المزرعة. كانت تلمّ الثمرات حول جذع الشجرة الهائلة، منها ما تزال حبات كاملة، والأخرى أصبحت بصقات حمراً لوَّنت الأرضية تحت جلستها. تمضي سعدية في التقاط التوت القريب منها، ثم تدهسه بيدها، ترفعه إلى وجهها، تمسح خدها بالعصير الأحمر، معتقدة أنه سيزيل الحبوب ويعالجها. حتى أكدت لها كل من بيبي الحجيّة ودَلَّة أن الزواج وحده سيمحو لها آثار مرضها الجلدي. ها هي تنتظر. أشفقتُ عليها. قدمتُ لها قطعة سُكر مُصَنّعة على شكل مكعب، من النوع الذي تقدمه أمي لصديقاتها في عزيمة الشاي. سعدية لم تر في حياتها مكعبات من سُكر، ومع ذلك رَفَضَتْ يدي. تألمتُ لها ومضيتُ. أَلَمٌ كان بحجم المكعب ذاك، سرعان ما ذاب كما ذاب مكعب السُكر في يدي، إلى جانب الكارثة التي وقعَتْ فيما بعد!

مضت الأيام التالية ببطء شديد. التحركات في البيت أصبحت وِفْق تقرير المستشفى والمحرار وجهاز الضغط وزيارات أبي صلاح، حتى سَمَحَ لكَ بالذهاب إلى المشروع مرتين في الأسبوع فقط، وأنتَ تطالب بالمزيد. قال كما يقول الأطباء:

– إن الإرهاق ليس في صالحك. قد يصيبك الإغماء أينما كنت، أرجوك خذ حذرك. أقولها لك كصديق.

– لكن يا دكتور عملي مهم، والمشروع في مرحلة توسع.

– كلنا لدينا أعمالٌ مهمة. أعتقد أنكَ قطعتَ شوطاً ممتازاً في السنوات الأخيرة، فلنهنأ بقليل من القناعة.

– سأموت دون عمل متواصل، أنت أدرى.

– أعلم ذلك يا عزيزي، لكنك ستموت أيضاً لو واصلت بهذه الكثافة. حاول أن تشغل نفسك بهواية ما، أو بالقراءة في فترة الراحة الإجبارية هذه حتى يسترد قلبك قوته.

حمل الطبيب حقيبته السوداء مختفياً عن الأنظار من فتحة الباب الأمامي. أنتَ غطيتَ وجهك بالملاءة البيضاء واختفيت بدورك.

قطعة أثاث جديدة في البيت، أمي تريد رأيي فيها. هيكل كبير يتوسط صالة الاستقبال في الزاوية المقابلة لموقع سريرك. رَفعَتْ أمي الغطاء. ارتسَمَتْ على وجهك ابتسامة. بيانو! أكل هذا لي؟! ماذا سأفعل بهذا العدد من الأصابع السود والبيض! جلستُ على المقعد أتحسس الخشب المصقول اللامع. مررتُ بيدي على الأصابع دون الضرب عليها. أخافتني كثرة عددها. نظرتُ في عينيكَ. أدركتُ ما تجسدَت فيه هوايتكَ الإجبارية. قالت أمي:

– سيحضر الأستاذ لأعطائكِ دروساً في الموسيقى ابتداء من الأسبوع القادم.

أضافت:

– أبوكِ يصر على أن تتعلمي وتتدربي في البيت كل عصر.

رددتُ خلفها كالصدى:

– كل عصر!

أجابت:

– نعم.

أدركتُ أن ذلك يعني: لا نقاش.

فكرتُ:

– حالياً على الأقل.

هكذا دخلَتْ حياتي حقيقة أخرى، الموسيقى. وجدتُ صعوبة بالغة في التركيز على الأستاذ جلال في البيت، بعد أن اعتدتُ على التحليق في أشجار المشمش. مضت ساعات معه خلال الأسبوع. أشعر تارة بلهفة خفيفة، وتارة أملُّ من التكرار للمقاطع. أحياناً أنفر من إرشاداته وصرامته، خاصة عندما يكون قد تناول أكلة مطعمة بالثوم يبدو أن زوجته تجيدها، فينفث نفساً كريهاً وهو يكلمني عن السُلّم الموسيقي. حدث ذلك منذ الأسبوع الأول وهو يحضر بعد فترة الغداء مباشرة. رغماً عني، اقترن مفتاح صول بطعم الثوم!

لم أتمكن من إقناعكَ يا أبي بأن تختصر زياراته لي لتصبح مرتين في الأسبوع فقط، حتى حدث في إحدى الأمسيات أن سمعتُ طرقاً قاسياً على الباب الأمامي. توقفت عن عزف دو – ري – مي، وأنصتُ. ازداد الطرق. لا أحد يفتح الباب. تركتُ الأستاذ في الحال متجهة نحو الطارق، فإذا بوجه حاتم مُنهَك يكاد يبصق جملته لشدة انفعاله:

– الله يخليك، تعالي بسرعة.

أثار فيَّ رعباً أشهده لأول مرة في طفولتي.

– ما بك يا حاتم؟

لم يجبني وراح يركض فتبعته. انطلقنا في درب المشمش نتسابق. نداء أمي أن أعود في الحال امتزج بالغبار الذي أثرناه خلفنا.

وصلنا إلى المجمع السكني الثلاثي. نصف عدد العائلة في الخارج، والآخرون يحتشدون في الكوخ الأوسط. ما إن دخلت الحوش حتى تعالى صراخ مخيف يَرجّ جدران الطين. النساء يبكين بنَفَس طويل، يُداخله بكاء حاد متقطع لصوت دَلَّة الذي لم أميزه في البدء، فأنا لم أر أياً منهم يبكي من قبل. لم أتخيّل أن هؤلاء الناس يبكون. ارتجف قلبي للأصوات. هيَّء لي أنني أميز نبرة دو من فا وصول. لم تعد ساقاي تحملانني وسط الارتباك وأنا أقترب من دَلَّة فإذا بوجهها الترابي يترطب بدموعها. الرجال يرددون «لا إله إلا الله»، وبقية الأطفال يحتمون بدشاديش الكبار، وجوههم حائرة، أيبكون معها أم لا؟! احترت في أمرهم، لا أحد يدلني على فاجعة دَلَّة، حتى رفعت نظرها وصَوَّبتْه في اتجاهي. بياض مقلتيها فقد الحياة وبات كأنه شريحة من بيضة مسلوقة تحيط ببؤبؤ دامع. وَلوَلَت فجفلتُ: «يُمَّه راحَتْ بنَيتي... الزّغيرة طاحت يا ناس...» ارتخَت مفاصلي وقد أدركتُ ما يحدث. لم تكن تلك اللفافة البيضاء الملقاة على الأرض بجانب أمها غير خدّوجة. لا أذكر بعدها سوى أن يد أحدهم جرّتني بعيداً عن المشهد.

الموت وخدّوجة... أخفقتُ في الربط بينهما!

حاولوا إقناعي أن مرض البلهارزيا قتلها مثلما يفعل عادة بالأطفال في تلك الأنحاء. شرحوا لي كيف أنها تبولت دماء كثيرة في مياه السواقي مما أودى بحياتها. أمي سارعت إلى عرضي على الطبيب. قال لي أبوها كاظم إن روحها صعدت عند رب العالمين، وأمي تؤكد لي أنها أصبحت ملاكاً يرقص في السماء. ظللت أياماً أرجوها أن تنزل، لكنها لم تفعل! بعد ذلك أعاد الدكتور جورج زيارته لنا، يُحَدّث أمي من خلف الباب عن كآبة ما، وضرورة تغيير المكان لنا جميعاً. يبدو أن المدينة جاء دورها. حلم أمي أصبح حَلَّها الأخير. أخذت ترتب أمور انتقالنا إلى بغداد دون اعتراض منك. موت خدّوجة، وتردي حالتك الصحية، حولاني إلى فتاة أخرى.

آخر ما أتذكره عن الزعفرانية هو الجمعة الأخيرة قبل تركنا المزرعة بشكل نهائي. بدأ العصر بهدير مُحرّك يألفه أطفال المنقطة جميعاً. انتظرتُ معهم في نهاية الشارع قدوم السيارة الكبيرة التي تزور البساتين بين موسم وآخر. صاحت المجموعة الأولى فينا: «هيه، إجه أبو الدخان». تتهيأ المجموعة الثانية للركض. تدبّ الأقدام الصغيرة لعشرات الأطفال. ميزتُ من بينهم غزالة، بنت عم خدّوجة الصغرى. يجرون خلف سيارة تنفث الدخان من مؤخرتها. كان ذلك لتعقيم الأشجار من الأمراض والحشرات. إنها المكافحة كما قيل لنا. لم نكن نأبه لما يقال حول قاتل البعوض. كنا نتراكض في السحابة الضبابية الكيميائية، رغم رائحتها الكريهة، تتبعها الشهقات والاختناقات ودموع تسيل من العيون المنفعلة. ينهرنا سائق المركبة البدين، ماداً رأسه من شباك ناقلته قائلاً:

– هذا الدخان راح يكتلكم مثل البعوض.

نمضي بعناد لأجل لحظات مسروقة من تخبط ونشوة اختفاء في الدخان. يسرع السائق مبتعداً. نتبعثر نحن على مسافات متفاوتة. نمسح عيوننا، وننفض ملابسنا موزّعين على الطريق بأحجامنا المختلفة، وأطوالنا المتدرجة. ذلك اليوم لاحظتُ أنني كنت أطول فتيات المجموعة. من بعيد يأتيني صوت ماكنة ضخ الماء من النهر إلى بستان مجاور. طُبْ. طُبْ. طُبْ.

دشداشتي من قماش الكريشة ونعالي أبو الإصبع. أطفأت ضوء باب السطح لأُبعد الحشرات. هبطت على فراشي القطني المترطب، أستلقي على جانب واحد لفترة عشر دقائق في الأقل، لأسمح للجزء الآخر أن يترطب ويبرد، فأنقلبُ عليه تاركة البقعة الحارة تحتي للهواء، وهكذا. أرجو أن يبتعد ذلك الخفاش اللعين. قالوا لي إنه يلتصق بالوجه ويمتص دماءنا من العينين. أغطي وجهي حتى أغفو.

في بعض الأمسيات، عندما تتبخر كل الأشياء–حتى الإغفاءة–في الحر، أترك ضوء مدخل السطح مفتوحاً، وأتلهى بمراقبة الـ «أبو بريص». يلعق البعوض والنمل بلسانه كضفدعة من لحمة مسطحة. أضجر منه. أضربه بشدة بالنعال، فتهرب السحلية القبيحة بشرايينها الزرقاء، تاركة خلفها ذيلها الرطب الذي يتراقص وحيداً قرب حافة الباب. في صباح اليوم التالي تكفي ذبابة شرهة لأن توقظني، أو هديل حمامة ترقبني من أعلى مزراب الماء أو من غرفة السلم المؤدي إلى السطح العالي. هذا إن فاتني سماع الأذان من الجامع القريب من بيتنا فتوقظني طمأنينة الفجر في ظل شجرة سرو هائلة. أمي لا تفهم إصراري على نومة السطح. كيف سأفهمها أن ذلك الفضاء من المخمل الأزرق والماس يقرّبني إلى خدّوجة!

سيناريو بداية الأسبوع يبدأ بطَيِّ الفراش القطني طيتين، ثم إدخاله إلى المخزن حيث تتكدس لفّات السجاد المحشية بحبات النفتالين الحافظة حتى الشتاء القادم. أدخل الحمام لأتخلص من عرق الليلة الماضية، ثم أقصد فرشاة تنظيف الأسنان. ثمة نملة كبيرة تعاني في توازنها على شعيرات النايلون. بدت لي سعيدة تلعق مخلّفات معجون الأسنان. تناولت الفرشاة ونفضتها، هوت المسكينة إلى حوض المغسلة. فتحت صنبور الماء وأغرقتها مع الرغوة. اختفت بسرعة في فوهة المجرى.

نظرت إلى نفسي في المرآة. سمرتي تباين البلاط الأبيض خلفي. زغب يعتلي شفتي العليا، يجب أن أتعلم من أمي كيف علموها أن تقتلعه بالخيط. رأيتها قبل أيام، تربط طرف بَكْرة خيط بمقبض نافذة قريب من جلستها. من منتصف مسافة الخيط تلفه حول إصبعها جاعلة منه مثلثاً ينزلق فوق الشعيرات، فيقتلع ما أمكن له صاعداً نازلاً، وهي تقدم رأسها وترده إلى الوراء بحركة آلية، كأنها تهزّ رقبتها على أنغام شرقية خفية. أمي تتعلم سريعاً في المدينة ما رفضته طويلاً في الريف. أنت يا أبي لا تكفّ عن ملاحقتها: «هذه المرة زوجتي تتعلم فنون قلع الشعر!». لعبَت الفرشاة الملوثة بين أسناني فهجم طعم النعناع. أمي رفضت أن أقتلع الزغب مثلها.

كلما نزلت السلم متوجهة إلى مائدة الفطور، دُست صرصراً أحمر أو خنفساء سوداء انقلبت على ظهرها طوال الليل. تُحدِث صوت تكسر يابس تحت قدمي، تلعب لوامسها الرقيقة حتى تنهرس. يأتي النمل ليحمل أجزاءها بامتنان. تناولتَ المشط لتضفر لي جديلتي في المطبخ، ثم شددته بقوة فجأة: «ما هذا يا ابنتي؟ هل نمت ليلة أمس والعلكة في فمك؟ علكة النفاخة، أليس كذلك؟». قبل أن تنصحني بشيء، جاءت أمي بالمقص وتخلصت من أطراف الجديلة. بعد أسبوع من ذلك، أقنعَتني بالتخلص من الجديلة كلها قائلة: «الدنيا حر بكل هذا الشعر». وافقت. ألتقطُ زهرة رازقي طازجة تطفو فوق نصف سنتمتر ماء في صحن صغير. أثبتها بفتحة زر قميصي قبل أن أغادر.

يقولون إن الطفل لا يعي كلمة اسمها «روتين»، فلماذا بدأت أشعر بها؟! يبدو أنني أصبحت طفلة كبيرة. فقد بدأت أملُّ دروس المدرسة. زيادة وزني بدأت تقلل من إقبالي على دروس الرقص. كلما ازداد ضيقي ازداد التهامي للطعام. لم أعد أطيق نصائح أمي، أو أستاذ البيانو عندما ينهرني لتهاوني في أداء التمرينات. لم تعد أيام الأسبوع الستة إلا واجباً قسرياً، عليّ أن أقضيه ليأتي يوم الخميس على عجل. سأشطف فسحة الدار الأمامية والسطح بالماء. سأسقي الحديقة، ثم أشاهد فيلم السهرة بعد أن ألتهم صفحات إحدى مجلات سمر.

ودعتُ أمي هذا المغرب من الباب الخلفي عندما وصل إلى سمعها بوق سيارة ميلي وديفيد. خرجت على أطراف أصابعها، تحاول ألا ينغرس كعب حذائها في وسائد الطين حيث بذرتَ أنتَ باقات نعناع صباحاً. تحب وريقاته في الشاي وعلى الجبن الأبيض. أرقب طقس لقائهم من وقفتي عند صنبور الماء. السيارة تتوقف. ينزل منها ديفيد يرحب بأمي بعناق وابتسامة عريضة. تنزل ميلي من المقعد الأمامي مسرعة تتركه لأمي، ثم تجلس في الخلف بكل رضا. عناق آخر مختصر قبل التحريك. التفاتة بسيطة من أمي إلى الوراء. تنظر إليّ ولا تراني.

أما الجمعة فأقضيها بإكمال واجباتي المدرسية. أتفرغ لتنظيف حوض أسماكي الزجاجي وتبديل مياهه. أرقب الحراشف الملونة الراقصة، أكلّمها ولا تنطق. عيون بلا أهداب تنظر إليّ من خلف الزجاج، لا تتوقف عن إرسال قبلات وفقاعات. نتناول سمكاً نهرياً ورزاً على الغداء. بعد ذلك تبدأ كآبة الأمسية، حتى نكسرها بلعبة المُطيّبات.

أعددنا معاً كيساً من حبات الذرة المشوية قبل أن نصعد إلى غرفتك. قلت لي:

– لولا أننا سنتعامل بالألوان فقط اليوم، لما سمحت لك أن تأكلي الذرة أثناء التجارب فملحها يفسد الذوق. وصل إليّ هذا الأسبوع عقدٌ جديدٌ من شركة جديدة للأصباغ، تريد أن تنافس السوق المحلي بأسماء منتجاتها الغريبة، طالبة مني أن أبتدع لها مصطلحات غير دارجة وأن أقترح لها أجواء دعايتها. أريدك أن تساعديني. سنحتاج اليوم إلى أن ننطلق بخيالنا حتى نهاية قوس قزح.

– ماذا عن تذوق المواد؟ كنت أنتظر ذلك طوال الأسبوع.

– المشاريع كثيرة يا صغيرتي، والأسابيع القادمة أكثر، هيا، لنبدأ العمل.

أخرجتَ لي أكبر مجموعة من مربعات ملوّنة رأيتها في حياتي. أمتار من تدرّجات لا يمكن تخيلها. شرائط فسفورية، وأخرى لامعة، وغيرها ذات سطح خشن، تنتظر أن نسميها. مستطيلات ومثلثات ودوائر من ألوان تتنافس في درجة نقائها. قمنا بفرشها على أرضية الغرفة نبدأ بأكثرها إغراءً. سألتني مشيراً إلى أول لون:

– ما رأيك يا مساعدتي، ما هو؟

أجبت دون تردد:

– أزرق.

– ما الاسم الذي تريدينه له؟

تأملتُ قليلاً:

– أزرق فاتح.

ضحكتَ، عيناك تقدحان:

– لا، لا، لا ينفع. سأعطيك مثلاً. إنه يشبه رذاذ البحر–زرقة دلافين –ضباباً من فضة–الثلج الجاف. يجب أن يكون الاسم شاعرياً غريباً، فهذا هو السر، أليس كذلك؟

قلت وأنا أقرأ التماعة نظراتكَ:

– تماماً، ولكن من أين سنأتي بالمزيد؟

– لا تقلقي، سيأتي. انظري الآن إلى هذا اللون، ما اسمه؟

– برتقالي.

– لا يكفي. قد يكون اسمه إيحاء الصدأ–نحاس الصحراء–عسلاً مذهباً–فتات خريف.

ذهلتُ. لم أعرف ماذا أضيف. أخذتَ تدوّن ملاحظات في دفترك الصغير. أتناول حبات الذرة أتفرج عليك.

– هذا اللون جميل، إنه بنّي لطيف وسأطلق عليه: بُنّي مقصور–طحين الجبل الصغير–توابل الشرق–كسرة خبز. ما رأيك؟

– عظيم.

– اليكِ الآن هذا.

– أنا أراه بقعة بياض تلمع.

– جيد جداً، وأنا أراه جناح ملائكة–حبة لؤلؤ–فورة شلال–كهفاً من جليد.

فضحكت:

– في هذا الحر يا أبي؟

– همم، عندك وجهة نظر. أرأيت بدأت تربطين اللون بالإسم.

ثم اخترتَ لوناً بُنيّاً مصفرّاً قائلاً:

– أتحداكِ في اختيار اسمٍ لهذا.

قلتُ:

– كاراميل.

فأضفتَ:

أتخيل أبداً أنني سأدخله معك. عالم من حواس يختلف عن تلك التي نلتجئ إليها في قاعات الدرس والرقص. إنه حيّزك، هذا الذي تصفه أمي بالدبق والفوضى. إنه فضاء الرفوف التي تحيطنا من كل جانب. أكياس، أنابيب، حاويات، علب، دوارق، أسطوانات، بحوث، نماذج مختبرات، أطعام، مطيبات، روائح وعطور. تفتح لي باباً تدلني على إبداع، بدأ يكتمل عندك، لتضعه في حضني. كلّك شك في أنني سأصغي. قلت:

– أغمضي عينيك. سأضع شيئاً تحت أنفك. شميه وحاولي أن تحزري ما هو وما لونه.

اعتدلت في جلستي لتبدأ اللعبة. قربتَ رائحة حامضة مني، سألتني:

– ما هو؟

قلت:

– أظنه ليمونة.

– ماذا بعد؟

قلت:

– لونها أصفر طبعاً؟

– ذوقيها إذن.

ففعلت، قائلة:

– لا، ليست ليمونة، أعتقد أنها برتقالة ففيها حلاوة أيضاً.

– إذن ذوقيها ثانية.

فعلت.

– نعم إنها أشبه ببرتقالة.

قلت لي:

– والآن يا صغيرتي افتحي عينيك لنرى.

قرأت ورقة ملتصقة على جانب علبة بلاستيكية تحتوي المسحوق الذي كنت أشمه: سندي وردي–نتفة زهرة–شبح جمبدة.

ضحكتَ عالياً لاستغرابي من كل تلك الأسماء.

قلتَ لي:

– أرأيتِ؟ ليست برتقالة أو ليمونة. إنه مستحضر من فاكهة السندي أطلقت عليه تلك الأسماء، فماذا تعتقدين؟ أيّها أنسب؟ يجب أن أختار اسماً لها وأبعثه ثانية إلى المختبر هذا الأسبوع، لتتم تسمية المستحضر بشكل نهائي.

– لماذا تقوم بذلك؟

– لأنها مهنتي التي أعشقها. أنا تاجر مُطيّبات. أنعَم عليّ الله بحاسة ذوق وشم لا توجد عند الكثير من الناس يا عزيزتي. لقد تخصصت في هذا المجال عبر سنوات عملي، حتى بدأت أبتدع أسماء غير مألوفة للطعوم والمطيّبات والعطور التي نحضّرها في المختبر. ها أنا أشم وأتذوق الوصفات والألوان ثم أتأمل في تسميتها. قد تطول العملية عدة ليالٍ حتى أتخيل الإسم المناسب للطعم أو العطر. من هنا يبدأ السحر.

– لم أكن أعرف أن هذا هو ما تقضي فيه وقتك في الغرفة. ألهذا تكره دخان أمي؟

– تماماً يا حبيبتي. الدخان قد يتلف رهافة أغشية الشم عندي. أمك لا تفهم ما أفعله. أنا لم يعد يهمني أن تفهم. لكن دَعوتُكِ اليوم لأسألك إن كنت ترغبين في مشاركتي مهنتي. سأفتح لك حاويات جديدة كل أسبوع، ونجلس معاً نتخيل ونُسمّي. بكلمات أخرى، أريدك رفيقة دربي هذا، فقد بدأت أضيق بوحدتي بعد حلول المساء، رغم أنني أستمتع بمعزوفاتك اليومية أثناء العمل.

لم أعرف بماذا أجيب. تعرض عليّ أن أكون مساعدتك مرة واحدة. أمسكت بيدي ورحت تضغط عليها برقة. دغدغني شعور جديد، يشبه أن يكون كطعم السندي الذي اختبرتني فيه. صداقة كانت أكبر مني، تفرض عليّ في أمسية واحدة، أن أكبر معها!

لم تعمل أمي مع شركة النفط كما خططت. وجدت البديل في مكتب للخطوط الجوية اللبنانية، قرب سينما سميرأميس في شارع السعدون. عندما تعود بعد الساعة الثالثة ظهراً، تذوب تحت هواء المبرِّدة. تقضي أكثر من ساعتين في نومة مقدّسة، لا يعكر مزاج صحوتها غير إصرارك على أنها تنام أكثر من اللازم، وأن الشمس بدأت تغيب. أنت تتذمر كل يوم:

– ألا يكفيك استلقاء نصف النهار؟! إن كنت غير معتادة على العمل فلا تعملي، أو لا تنامي بعد الظهر واذهبي إلى فراشك باكراً.

تزعق أمي في وجهك:

– أرجوك لا تنصحني في هذا الأمر، نومي وصحوي من شأني.

تبدأ النبرات تسلّق السلم صعوداً:

– أما تسألين نفسك عمن يقضي أوقات العصر مع الفتاة؟ تدرس المسكينة طوال النهار، وأنت تبحثين عن معاجين تعطي سمرة للبشرة في نصف ساعة، مساحيق تغطية التجاعيد، قاصر الكلَف، مستحضرات شد الوجه، كريمة تنعيم اليدين، زيوت للشعر التالف، حتى تعلمت تحضير مواد إزالة الشعر في البيت! ماذا دهاكِ في المدينة؟

– أنت ماذا دهاك! جلستك في البيت تضطرني إلى تركه لأطول ساعات ممكنة. ابنتي تكبر ولا تحتاج إلى رعايتي البالغة كالسابق. لا تحاول أن تتلاعب بضميري. أنا راضية عن عملي وواجباتي هنا. لا تحاول ابتزازي نفسياً. إنها بخير وليس في حاجة إلى شيء.

– أصبحت لبقة أيضاً! هذا ما كنت أخشاه. ليتني لم أكن مُقيّداً بتعليمات الطبيب، إذن لوفّرت لها كل ما تفتقده. اللعنة على ذلك اليوم المشؤوم الذي أغمي عليّ فيه.

– دائماً تحوّل أفعالي إلى دراما.

أرقب أمي. تجيبه بشفتين تكشفان عن نتوءات حبات لوز، مزروعة على لثتها كالتطريز بدلاً من أسنانها. لوزتاها عندما تتكلم كالسوبرانو، تهتزان وتبدوان لي كنواتَي تمر هندي مطربتين.

أضافت:

– لا أحب الانتقاد. أنت أدرى. ليس عندي ما أقدمه أكثر من هذا، خاصة في هذا الحر اللعين. أما يكفي أنني أتحمل انقطاع الكهرباء؟!

راحت تبحث عن مروحة قش تقليدية، بعد أن أضاعت مروحتها الإسبانية. قُلتَ لها بعد لحظات صمت كأن شيئاً لم يحدث:

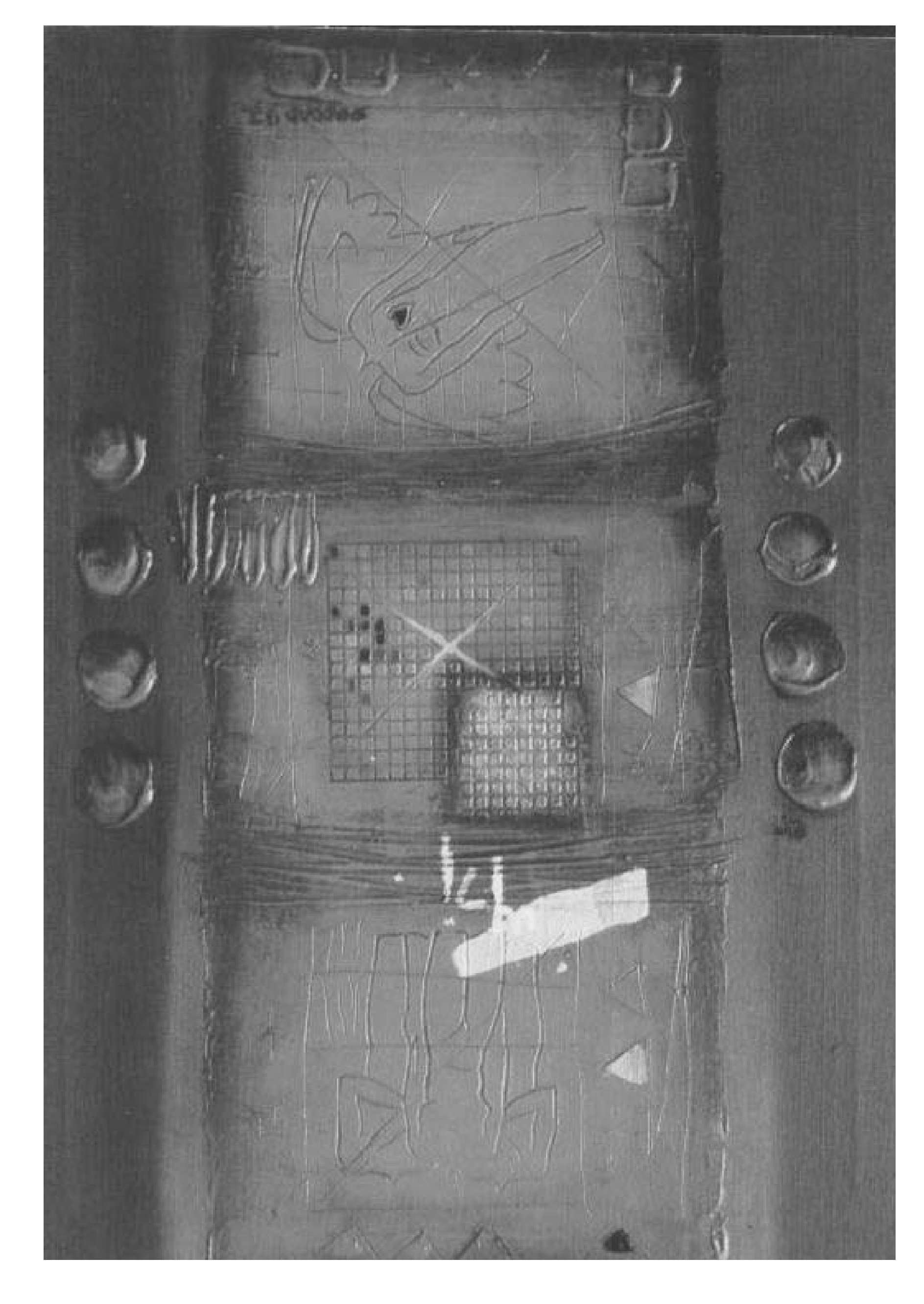
– إذا رطّبْتِها بالماء ستعطيك نسمة منعشة.

تركتَ الغرفة.

استدرت بدوري متوجهة إلى غرفتي. أمي لا تطيق أحداً عندما يبدأ خدّها بالانتفاخ الأحمر، وجسمها بالتعرق، حتى تنتهي ثانية على فراشها نصف عارية. تصرّ على أن الجفاف سيصيبها، وستموت يوماً ما متيبسة. أعطيتها الحق هذه المرة. أصعد السلم. هي لم تولد في الحر مثلي، وصيفنا، على حد قولهم، يبخر الدم من تحت الجلد. الحرارة المعلن عنها في الإذاعة اليوم أربعون درجة في الظل. الجميع يقولون إن الإعلام يكذب، وإلا لتوقفت الدنيا في الخارج عن العمل من شدة الحر.

ازدادت وحدتي ذلك المساء. توقف أزيز المروحة وحلّ الحر عندي والظلام. أشعلت شمعة ألهاني تأملها عن الدراسة. أغلقت الكتاب بضجر. سقطت بعوضة في قدح الشاي بقرب الشمعة. اصطدتها بقلمي ورميتها جانباً. شربت ما تبقى في القدح، ثم اصطدت ثانية. شيء ما دفعني للإمساك بها. وضعتها أمامي فوق الكتاب. شرعت باقتطاع جناحيها ودهس نتوءاتها بطرف القلم. شعرت أنني أملكها. تُرى، أنمتلك أحياء أخرى ثم نعذبها؟! أم نعذبها أولاً ثم نشعر أننا نتملكها؟! مرت الدقائق بثقل كأن لزمن الحر صوتاً تشعر أنه يمر بجانبك ببطء شديد. فجأة! شعرت بالإثم تجاه هذا المخلوق. أشعرتني البعوضة بالخطيئة. ماذا لو عادت إليها الروح وانتقمت؟! ماذا لو أصبحت بحجم الغرفة وتصرفت معي بالمثل؟! خفت، ولأطرد خرافتي، أعدت محاولة لصق الجناحين بالجسم، وإعادة الرأس الناعم إلى مكانه. لم أكد أنتهي من تجربتي الشيطانية تلك على ضوء الشمعة، حتى عاد التيار الكهربائي فجأة ليغذي المروحة العمودية الواقفة أمامي. أطلقت أزيزها وهواءها باتجاهي لتقذف البعوضة بأجزائها المتقطعة في وجهي. حدث ذلك في ظرف ثوان سبق استيعابي لما حدث. انتقمَتْ البعوضة بصرختي المبحوحة «يُمَّه».

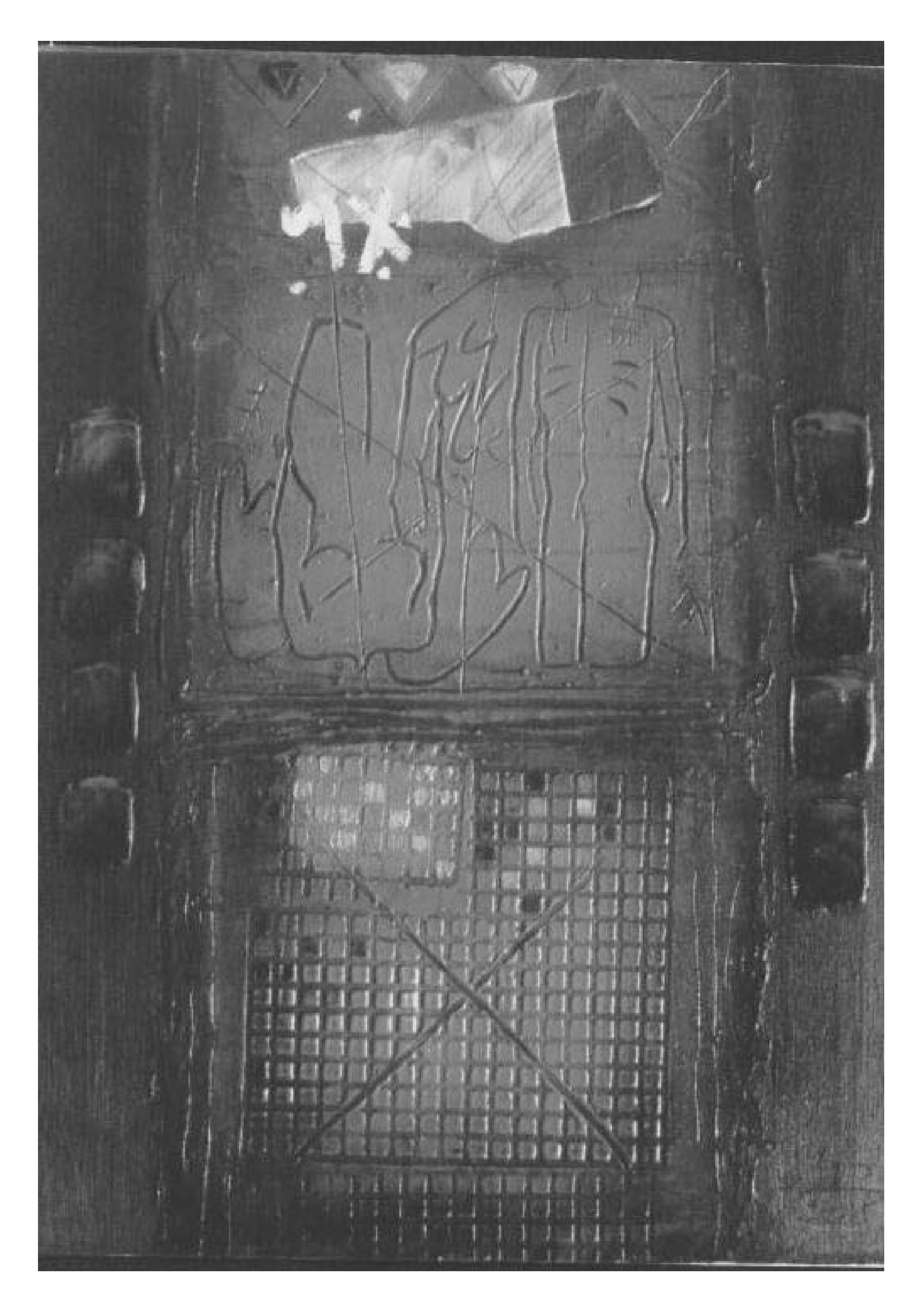
نزلت إلى المطبخ أبحث عن كيس بذور زهرة عباد الشمس المشوي وبذور البطيخ المقلي. كيس من بذر أبيض وبذر أحمر وبذر مقلّم. جاء وقت النوم. سأجلس على فراشي في السطح ألتهمها، متأملة النجوم. حاولت مرة أن أعدّها مستلقية على ظهري حتى أنهيت كيساً كاملاً. هاجمني مغص لم أجرؤ على أن أشكوه لأمي. ارتديت





قلت وأنت تسعل بشدة:
– أنت يا امرأة طالق إن رغبت. لك ما تشائين. اذهبي إليه أو عودي إلى إنكلترا. لكن الطفلة طفلتي وستبقى معي، أعدك بذلك. القانون بجانبي. سأجعله بجانبي شئت أم أبيت.
سمعت وقع أقدام أمي تصعد السلم مجتازة غرفتي لاهثة. حبست أنفاسي حتى سمعتك تعود إلى غرفتك أيضاً. أول تجربة لي مع الأرق. تسللتُ حافية إلى صالة الزعيق. مخلوقات الزينة مضطربة. إحدى سمكاتي ماتت. تطفو فوق فقاعات رفيقاتها. الماء يقطر من جانب الحوض مُحدثاً بركة صغيرة تحته. قمت بقطع التيار الكهربائي عن جهاز توليد الأوكسجين. شرعت في رفع الحوض من مكانه. لم يكن ثقيلاً وأقل من نصفه فقط مليء بماء بدأ يتعكر. حملته فتأرجحت أزواج السمك محدّقة فيّ. أتوجه نحو الحمام. دفعت الباب بقدمي. ألقيت نظرة في المرحاض، حبتا براز أسطوانيتان تطفوان في فوهته. ذكرني لونهما بسمرتي. فكرت، صابونة شوكولاتة، ثم أنَّبْتُ نفسي للتشبيه. قلبت محتويات الحوض فيه. جررت اليد الحديدية إلى أسفل، تششش! ابتلعت ريقي. وقفت هناك لحظات أتأمل فعلتي، ثم أغلقت الباب خلفي.
لعبة الألوان. تحدي المُطيّبات. خيال العطور. سحر الروائح. كل ذلك لم يعد ينفع. التصادمات تزداد. بدأتُ أتأقلم مع مشاكلكم بعد أن كنتُ أهرب بها إلى غرفتي. أما الآن، فقد تعلمتُ أن أمكث في مكاني أستمع دون أن أتدخّل. بعد فترة ممارسة، وصلتُ إلى مرحلة عدم الاستماع، تماماً كمغناطيس الخياطة عندما أجمع به الدبابيس المتناثرة. الدبوس الأول يُحدث تكة مسموعة، ثم الثاني يتك، والثالث أيضاً، حتى يتغطى سطح المغناطيسة. أستمر في جذب الباقي، فيتكالب بعضها فوق بعض دون أي صوت. تبدأ أواخر الدبابيس بالتساقط لثقل الحمولة. هكذا، تعلمتُ أن أُسقِط ما يثقل عليّ من المشاكل. حالة تكرهها أمي. شعرتُ أنها تريدني إلى جانبها في أعلى درجات ضيقها، وأنا لا أستطيع أن أقرر من هو الضحية.

أتيَتني بمسحوق أبيض حليبي قائلاً:
– في المختبر يريدون تسميته كريمة الصودا. عادي ومألوف، أليس كذلك؟ ما رأيك، مرمر حلو؟
أجبت:
– نعم جميل، هل هو حلو فعلاً أم أنه اسم لون؟
– سيستخدم كمُطعِّم للكيك. ما رأيك برقائق الصدف؟
قلت:
– رقائق الصدف تسمية ناعمة، لكنها لا تليق بمسحوق كيك. بابا، دعنا من الهروب إلى صوب قوس قزح. لو كان يقبع في نهايته دلو مليء بقطع ذهبية مثلما تدّعي الخرافة الإنكليزية، لفهمت إصرارك. لكن حتى ذلك الدلو أصبح في حوزتك. صحيح أم لا؟
تنهدتَ. جلستَ على مقعد قريب قائلاً:
– نعم يا ابنتي لقد تعبت من عملي. قطعت شوطاً لم أحلم به في حياتي. كما حاولتُ أن أقر بأن أمك على قدر من الصواب في أمر تعليمك في المدينة. لم أرغب في أن أكون أنانياً بعد أن تحسن وضعنا المادي. بيتنا هذا ليس إلا بداية الطريق. لكن...
اقتربت منك قائلة:
– أريد أن أحدثكَ بشأن هذه الـ«لكن». لم أعد تلك الطفلة التي تظنونها. يجب أن تقول لي ما هي نهاية هذا الدرب؟
أجبتني كأنك تزيح الكلمات عن صدرك:
– لا أعلم يا صغيرتي. هي تريد الانفصال النهائي. هذا بالنسبة لي يُدعى بالطلاق. لكنه ليس في صالحنا أو صالحكِ أنت بالذات. هل تتصورين أن نتطلّق بعد كل هذه السنوات؟! من ناحية أخرى لا أستطيع السماح لها أن تسرح وتمرح بين الأجانب كما يحلو لها. تتنقل بين بغداد والبصرة تقول لي إنها ذاهبة، لتخبرني فقط، لا لتأخذ رأيي. لن أسمح لأحد أن يهزأ مني.
سألتك بقلق:
– ما العمل يا أبي؟
تجيبني بشيء من حزن:
– ربما لو لم أكن مهدداً بجلطة ثانية لانتقلنا جميعاً إلى إنكلترا. لكن البلد بلدي والخير هنا في هذه الأرض. لا أريد أن يصيبنا ضياع حضاري كالذي أحسستُ به خلال سنوات دراستي. فكرة العزلة ثانية عن الوطن تخيفني. أقولها لك بكل صراحة.
نظرتَ إليّ بابتسامة تشقُّ طريقها إلى فمك. أضفتَ:
– والله البنات يكبرن بسرعة!
– هل نسيتَ أن عيد ميلادي السادس عشر الشهر القادم.
ضربتَ جبينكَ قائلاً:
– وتكبروننا معكم!
تبادلنا حضنة. أخرجتَ من جيبكَ بطاقة رقيقة، لونها أشبه بشريحة من مشمش قبل نضوجه بأسبوع. قلت:
– هيا، أريني شطارتك.
– عصير البطيخ.
– أنا أسميته رقصة السلمون.
– جميل يا أبي. سأعطيك بديلاً آخر، مرجان بارد.
غمزتني قائلاً:
– فعلاً إنه مرجان بارد.
– متى ستقلل من ساعات عملك؟ هذا التعب على وجهك مقلق.
– ليس لدي غير ساعات الخيال والعمل هذه، لولاها لمتّ من زمان.
فجأة، توقفت متذكراً:
– بالمناسبة، أريدك أن تأخذي أمك لتعزية عائلة بيت أم نضال جيراننا. توفي زوجها. أفضال المرحوم عليَّ كثيرة. يجب أن نقوم بالواجب تجاه الجيران، أليس كذلك؟
– سأخبر أمي ونذهب غداً.
– لا تنسوا أن تأخذوا معكم قطعة قماش أسود للمرأة.
أضفت بنبرة جدية:
– دون توصية، عيب تخرجوا قبل العشاء.
اليوم النساء تعششن في سواد يجمعهن في دائرة تلفّ أم نضال. قارئ قرآن يئنّ في الممر المؤدي إلى المطبخ. قارئة أقدار تقفأ العين المرسومة في القهوة العربية، المترسبة كالإسفلت البنّي في قعر الفنجان. منظر من وطاويط تبكي رحيل أبي نضال. أتذكره جيداً. كان يشكو إليكَ تصرفات زوجته، متذمراً من تعاطفها مع مجاذيب المحلة قائلاً: «قلتُ لها يا أم نضال يا عيني، قلتُ لكِ ألف مرة لا تُدخلي هذه الأشكال إلى بيتنا. سواء العجوز ذات الحدبة المختصّة بإزالة الشعر للنساء. أم ذلك الذي يُدعى أبو عشرة فلوس، لأنه يرفض أية صدقة إلا إذا كانت عشرة فلوس. وماذا عن المجنون الذين يطلقون عليه حسن المخبّل، يطوف في المحلّة على دراجته الحمراء لتصليح التلفزيونات. وسيدة المجاذيب، الخادمة ماجدة أم النعل، تمشي حافية تضم نعالها تحت إبطها أو تعلقه فيتدلى من رقبتها».
دخلتُ الصالة الكبيرة مع أمي وميلي، التي كانت على معرفة بابنتهم نضال، قبل أن ننتقل نحن إلى المدينة. تركنا أحذيتنا عند كدس القباقيب والأحذية في مدخل الغرفة، تنبعث منها رائحة عظام سمك. سلمنا على المقرّبات من أهل البيت. جالسات في صف مستقيم ليتسنى لزائرات الحزن أن يتعرفن عليهن لتعزيتهن. من المفضل أن لا تغير زوجة المرحوم مكانها من اليوم الأول حتى السابع، فتبادل المقاعد، قد يجرّ إلى تحدٍّ جدي بالعيون. تدخل النساء. أحجام، أطوال، أشكال، أبعاد، بشرات، تقاطيع، أعمار. يرتدين العباءة التقليدية السوداء. من الفتحة تطل الوجوه بالتناوب، لإلقاء نظرة شاملة تمسح بها أجواء الغرفة. عندما تبدأ النساء المسنّات بالجلوس هبوطاً على الفراش المبسوط على الأرض، تنتفخ العباءة من الجوانب تغطي الأجسام المكوّرة. تبدو كأكياس رز مرمية بحزن.
قالت إحدى الجالسات: «عيني، العزاء بارد!».
من الصعب تمييز الشخصية القيادية في عزاء النسوان، وهي «المُلاّية»، حتى يظهر صوتها فجأة وقد بدأت في التعديد. تذهب شابة إلى قارئ القرآن قائلة: «من فضلك النساء يرغبن في التعديد». يسكت الرجل مستغفراً ربه، هازاً رأسه المثبت على جسم هزيل للغاية، كأنه قلم تعتليه ممحاة، بعمامته المحاطة بحز أبيض. تبدأ إثارة المُلّة: «يا ويلي عليك يا أبو الدار». تضربها رفيقتها بعكسها قائلة «أبو الدار هو المرحوم». تصحح المُلاّية نشيدها: «يا ويلي عليكم يا أهل الدار على مرحومكم أبو الدار».
تنفعل أم نضال معها. تنهار بأسى، كأنهم أخبروها بموت الرجل تلك اللحظة. تتصاعد الصيحات: «عيني أبو نضال لماذا رحلت وتركتنا!». أخرى تنادي: «لم يحن وقتك يا أبو نضال!»، ضاربة حضنها بإيقاع متواصل. تخيلتهن جميعاً حزباً من أرامل كئيبة يواسين بعضهن بعضاً. أم فلان لم تغادر بيتها حتى اليوم منذ أن فقدت ابنها. جاءت هنا لتجدد حزنها ليس إلا وتؤدي واجب الجيرة. تتصاعد الولولات



– أو بشرة حنطية–قشرة فطر البساتين.
لا يمكن أن ألحق بغزارة تسمياتك. فضلتُ أن أستمع.
– لا تيأسي. ستتعلمين المهنة قريباً جداً، أنا واثق من ذلك. هذا اللون الأصفر ما رأيك؟
– ليمونة.
– نعم. لكنه أصفر غير نقي، قد يكون حراشف أناناس–معجون الموز.
– لكنها ألوان أصباغ يا أبي!
– هذا ما يجعلها أكثر إثارة.

كل تسمية تأخذ عشر دقائق من التفكير على الأقل. قد يستغرق اختيارك لاسم معين أكثر من نصف ساعة. الآن فقط بدأت بالتعرف إليك. عالمك هذا لم يخطر ببالي وأنا منصرفة لروتين المدرسة والزي والتدريبات. لم أفكر يوماً في أن أتخيل أن اللون الوردي يمكن تسميته هلام الكرز، أو أن يُسَمّى اللون الأخضر بالغابة الكسلى أو قشرة تفاح معتّقة أو حصى النهر. من أين تأتي بكل هذا السحر يا أبي! تُرى، أكان هذا ما تقصده أمي عندما أغريتها بوصفك للشرق؟!

مضت أسابيع ونحن نتسابق باختراع ألواننا. أيام الجمعة أصبحت أقل كآبة. ازدادت كركراتنا على مائدة الفطور ندما تقص بيضة مسلوقة من منتصفها قائلاً:
– آها، مُحّة رملية.
فأقول:
– لا، إنها قطعة مخمل من عنبر.
تصيح بي:
– أيتها الملعونة، تلميذ الأستاذ هو أستاذ ونصف.
ترشقنا أمي بنظرات استغراب من خلف صحيفتها. رفَعتُ سكينة عليها لطخة كبيرة من مربى توت غامق، زبدتُ بها قطعة خبز. استدرت نحوك:
– بابا، ما رأيك؟
قلت بابتسامة:
– عنجاصة تركية.
قلتُ:
– لا، توت متوحش.



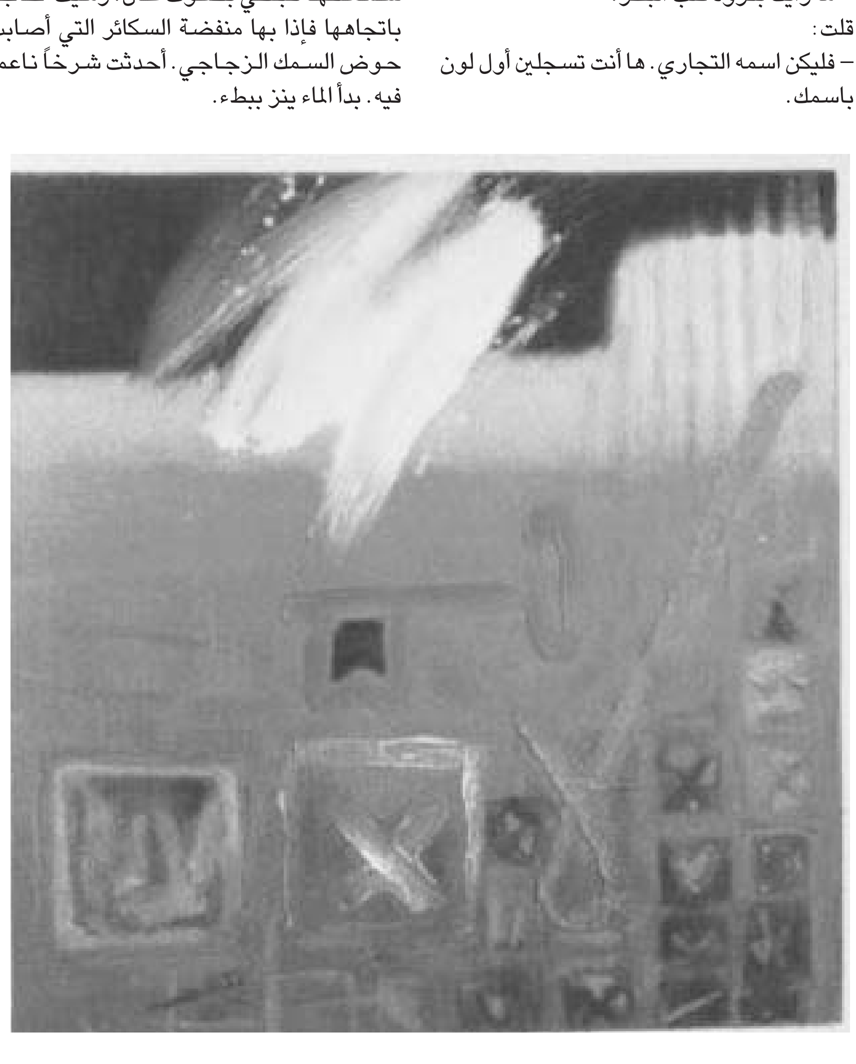
أضفتَ:
– أحسنتِ. لكنه أشبه بعنب عجيب.
قلتُ:
– لا، هذا اسم عادي. ماذا تقول لمسحوق الفيروز.
قلتَ:
– ممتاز، أو حمرة المغيب.

هكذا، تلوّنت أيامنا معاً. خَصّصنا أمسية كاملة لتدرّجات اللون الرمادي، لم أر مثل جمالها من قبل. قلت ذلك:
– كيف يصنعون هذه الألوان في المختبرات؟
– العلم يتقدم. ما دمنا نعرف كيف نستغله فالمستقبل يبشر بخير.
اقترحت عليّ:
– رماد البركان–غيمة داكنة.
– ألم تنصحني ألا أستخدم اسم اللون نفسه؟
– نم، لكن الرمادي ليس بلون، إنه يحير.
– إذن، دخان حائر.
– أحسنتِ، أو رغوة السواحل–مسحوق الحجر.
قفزت قائلَة:
– نعم، مسحوق الحجر ينطبق تماماً، كأنه لون الكونكريت.
– أرى أنك ستبدعين في هذا المجال يا صغيرتي.
– هل يعني ذلك أنني يجب أن أدرس الكيمياء مثلك؟
– قد لا تحتاجين إلى ذلك إن بقيت مساعدتي فقط. على كل حال هذه خبرة بدائية لك، فهناك تخصص اسمه فن الدعاية قد يروق لك دراسته عندما تكبرين.
سألتك:
– ما رأيك بفروة كلب البحر.
قلت:
– فليكن اسمه التجاري. ها أنت تسجلين أول لون باسمك.

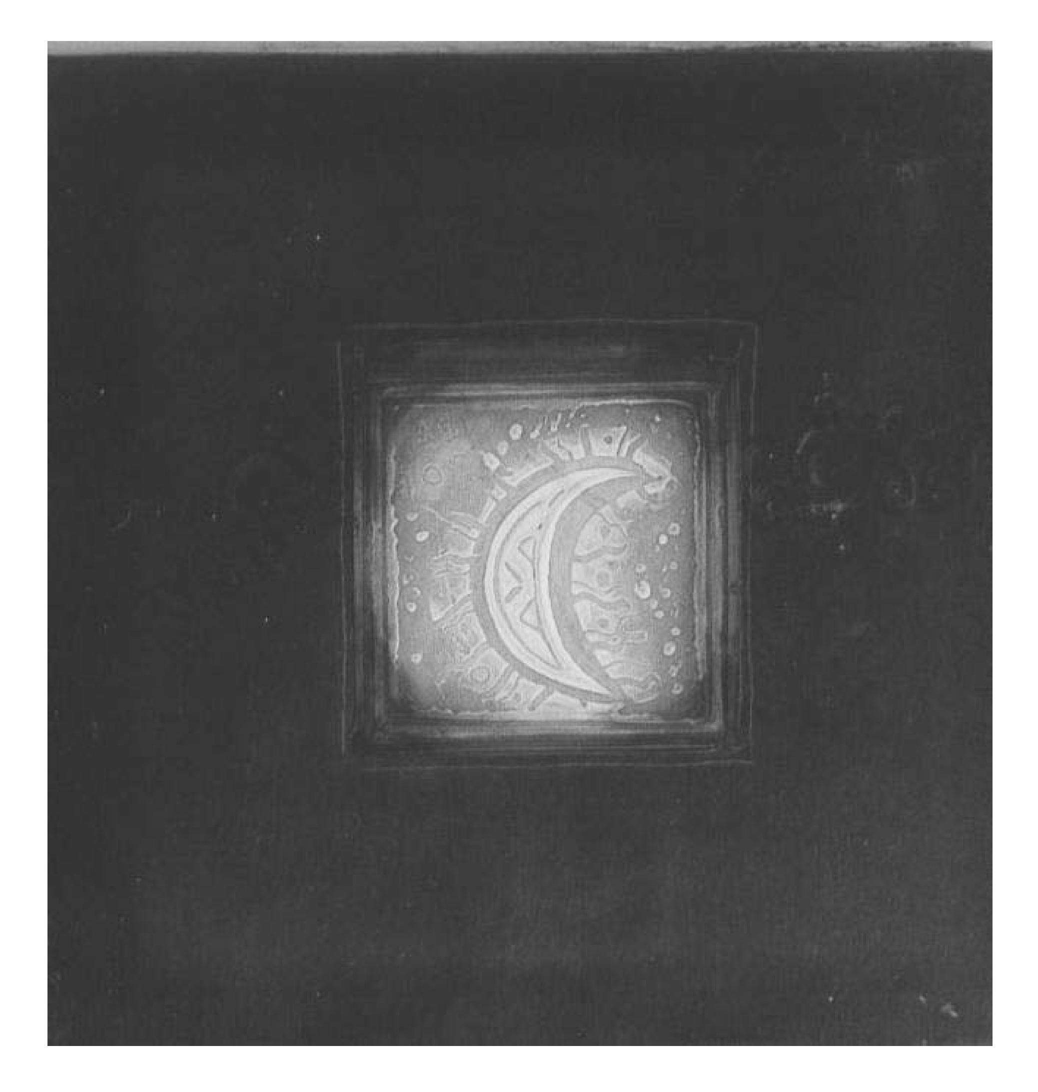
تُدخلني إلى عالم ألوان ومُطيّبات، سكن بعضها أحلامي، وبعضها أخذ يسكن، بكل بلوراته، تحت لساني.

عندما نظرتَ إلى ساعة الحائط كانت قد تجاوزت الواحدة. قلت:
– يا إلهي، لقد نسينا مسألة دوام المدرسة. أسرعي وتهيأي للنوم.
قبلتك وتركتك في غرفتك. غرفة أمي ساكنة تماماً. لكن، ولأول مرة، استيقظت فزعة من نومي. أسمع أمي تزعق في الطابق السفلي عند الثالثة والنصف صباحاً. أنت تصيح بأعلى صوتك:
– يظهر أنني أعطيتك حرية لا تستحقينها. بلغتنا نقول أخذتي عين.
– لا يهمني ما تقولونه. أنا سئمت هذا الارتباط السطحي. أحب السهر مع مجموعة الأجانب متى شئت، دون أن تفسد عليّ ذلك عندما أعود. لستُ سندرلا لكي أرجع قبل الثانية عشرة. ألا تفهم أن حياتي انفصلت عن حياتك؟ نحن لا نعيش، أو نتعايش حتى، فقط نحيا معاً في بيت واحد.
– ما دمتِ في هذا البيت فستحترمين بعض تقاليده. لا أظنني مقصراً تجاهك في شيء. لا تزيدي حياتنا ارتباكاً.
– إذن، عدنا إلى أنّ الذنب ذنبي. يا رجل، أنا أريد الانفصال النهائي. لا أريد أفضالك، ولا تذكيرك لي بأنك سيد الدار. سأكتفي بعملي وأصدقائي وابنتي.
– وأين ستعيشين؟ في البصرة؟
– لم لا؟ أليس أفضل من هذا الجحيم؟
– لا تفكرين حتى بإنكار علاقتك به.

عند هذه النقطة شعرتُ أنك ستنفجر غيظاً. سمعتها تبكي بصوت عال. رميتَ حاجة باتجاهها فإذا بها منفضة السكائر التي أصابت حوض السمك الزجاجي. أحدثت شرخاً ناعماً فيه. بدأ الماء ينز ببطء.



الفصل الرابع



صوت بَدوي من الراديو يردد: «يُمّه، بعرسي، يغني المدفع طول الليل... يُمّه، البارود من اشتمّه، ريحة هيل...». بعد أشهر من إذاعة النفير العام، أصبحت حياتنا عبارة عن مقاطع لكل ما عشناه قبل الحرب، تحولت بسرعة إلى أيام أشبه بالذكريات. ومقاطع لأحداث ما بعدها، أخذت تنزلق بعضها فوق بعض مثل قطرات زئبق تتجمع ببطء. تكبر الكرة الهلامية، تعيد تكوين نفسها ساعة بعد أخرى. مع تصاعد أرقام البيانات العسكرية تضطرب تموجاتها الضبابية في منامنا، لتنحصر نهاراتنا بين سؤالين متلازمين. لماذا وإلى متى؟!

اللازمات المضحكة، استُبدلت بها أناشيد جدّية: «إحنا مشينا، مشينا للحرب... عاشق، يدافع من أجل محبوبته، وإحنا مشينا للحرب...». نغنيها في دروس التبرع، نقوم بخياطة لفافات من القطن لتُرسل إلى الجبهة. طالبة تدندن: «أنا أمك، كالت لي الكاع، وأنت ولَيدي... عريس وربعه يزفّونه، وعرسك عيدي...». تناولني أمتاراً من شريط لاصق، نثبته على زجاج نوافذ الصفوف في الطابق العلوي والسفلي من الداخل والخراج. ندعو ألا تصرخ الغارة أثناء الامتحان.

لم أعد أنام على السطح، أو أسمع هلاهل العصافير عند الفجر. كنا ننقطع عن دوام المدرسة بين فترة وأخرى لتعليمات تنفذها الإدارة. يتم إخلاء الساحات برنّة من جرس خاص، أو يأمروننا بالإنصراف إلى البيوت. الإرشادات كاملة للتحصن وحماية النفس في حالة حدوث هجوم قاصف. تعلمنا ألا نختفي تحت السلالم، ندفن وجهنا بين يدينا لنحمي رأسنا من أية إصابات محتملة. يجب الارتماء على الشارع في حالات الطوارئ القصوى، نخفي وجهنا مستلقين على بطننا عند نقطة التقاء الرصيف بالشارع. دروس الإسعافات الأولية تشدد على حالات الاختناق والحروق، ما عدا أسابيع تدريبات الجيش الشعبي للبنات.

اجتاح الناس أسواق الأغذية في رعب، يكدّسون علب الأغذية المحفوظة، وكل ما تقع أعينهم عليه. تحولت المخازن إلى غرف فارغة أصحابها حائرون، هل يدخرون شيئاً لعوائلهم؟ أم هل يستمرون بقول: «عيني، لا تجزعوا هكذا، الشدة ستزول!». بدأت شحة البطاريات، المدفآت النفطية والغازية، الشموع، المصابيح اليدوية، السكائر، علب الكبريت، النفط، الفحم وحتى الثلاجات. أمي تؤكد قائلة: «رأيتُ هذا السيناريو في الحرب العالمية الثانية». تضيف بكل هدوء: «رغم أنني كنت طفلة بالطبع». بعد قليل، كأنها تستدرك، تقول: «مع ذلك أعتقد أنه لا داعي للقلق». حتى أعلنوا أن السفر ممنوع. عند سماعها الخبر غيرت رأيها، مما جعل الفراغ الضئيل يعود ليفصل قدمها عن الأرض. صار تنقلها في أرجاء المنزل تحركاً صامتاً أقرب إلى التطواف منه إلى المشي. ترفض تماماً أن نلتحق بأي ملجأ نقضي فيه ليلة أو اثنتين مع أهل المحلّة.

برامج التلفزيون تقدم نبذة تاريخية عن اعتداءات قديمة. سلب، نهب، حصار مدن، اكتساح قرى وقصبات. صور لخيل ثائرة وسيوف تضببها إيحاءات دبابات ضخمة وأسلحة حديثة. حديث عن اتفاقية الجزائر عام 1975 التي اعتبرت فرصة لإنقاذ أمن الدولة والوحدة الوطنية والجيش. وعلى هذا الأساس تم التفاوض على خط «التالوك» كخط حدود في شط العرب، مقابل تراجع الطرف الآخر عن أراض مغتصبة في عهود سابقة.

أياماً على التوالي ينقطع الماء والكهرباء والتليفون. أمي تبحر في المرآة الكبيرة في غرفة نومها أوقاتاً طويلة. تتناول الساعة المنبهة من طاولة زينتها لتضعها في المجرّ الخشبي. بعد قليل تخرجها ثانية من المجرّ لتحشرها تحت وسادتها. بعد ذلك تقوم متجهة بانزعاج نحو الوسادة وتُخرجها من تحتها، تعطيها لي قائلة: «!for God's sake، خذي هذه الساعة إلى غرفتك، احتفظي بها أو ارميها من النافذة، لا يهم، فقط خلصيني منها وإلا ستقودني تكتكتها إلى الجنون». كان صوتها ذلك اليوم يشبه قرقرة ديك رومي غاضب، يطلقون عليه عادة تسمية «علي شيش». أذكر عندما قلت لها مرة إن اسمه الشعبي «فسيفس»، ضحكتْ عالياً قائلة: «لا بأس، بما أننا لا نحتفل بطبخه كل عيد».

مُحلل الأحداث الراهنة لا يتوقف عن بث تقاريره بنبرة عميقة: «يتبع خط الحدود في شط العرب-التالوك-أي خط وسط المجرى الرئيسي الصالح للملاحة، عند أخفض منسوب لقابلية الملاحة، ابتداء من النقطة التي تنزل فيها الحدود البريّة بين العراق وإيران في شط العرب حتى البحر».

تصبح نبرته أعمق: «كما اتفق الطرفان المتعاقدان، حسب المادة الثالثة، على اعتبار أن نقطة انتهاء الحدود النهرية، تقع على خط مستقيم يصل بين نهايتي الضفتين عند مصبّ شط العرب في أخفض مستوى للجزر، أي أخفض مستوى للماء بالحساب الفلكي».

أصبحت أمي تهزُّ ساقها بعصبية. تارة تعبث بشعرها تعيد تصفيفه مرات ومرات، وتارة تمضغ علكة أعلم أنها تكرهها. تقشر أظفر إبهامها بظفر سبابتها في حركة لا واعية قائلة:

-يا إلهي، ما هذا الحر الفظيع؟! ألا توجد أية طريقة لأن نبرد أنفسنا؟ العصير الذي تناولته بدأ يغلي في معدتي. سأطلب من أبيك أن يجهزنا بمولّدة كهربائية كالتي يمتلكها المستشفى في جوارنا.

تتوقف برهة عن الحديث. الحر يخنقها. تفتح علبة بيضاء عليها علامة الصيدلية الخضراء. أفعى ملتوية حول قاعدة كأس تشرب منه. تبتلع أمي إحدى حبات محتوياته فأسألها:

- ما هذا الذي تتناولينه؟

تقول:

- حبات مهدئة. بالمناسبة هل سمعت أن الأجانب سيغادرون البلاد قريباً؟

قلتُ:

- لا ليس بعد. على كل حال فأنت مُتجنّسة، لا أعتقد أن القرار يشملك، هل يعرف أبي؟

أجابتني بنظرتها:

- سيّان عندي.

فقلتُ:

- أقصد عن الحبوب المهدئة؟

أجابت بملل:

- سيّان عندي أيضاً، حلوياته لا تجعله طبيباً.

كانت متعبة. هالات سود انتفخت تحت عينيها. تركتُ لها الغرفة في هذا الحَر الأبكم.

قرأتُ على ضوء الشموع، حتى استحالت الحروف نملاً يتنزه على الورقة البيضاء. شعرت بوغرة الأمسيات كوليد مربوط بقماط العرب، محبوسة في شرنقة محكمة، لن تفلّها يد منقذة إلا عندما يأتي التيار الكهربائي. أنت تبرعتَ بالمولّدة للمختبر بدلاً من بيتنا. بدأت أفقد وزني دون عناء، وأمي تنفعل بين فترة وأخرى مشيرة إلى ما أسمته هزالي. أنت تحاول تخفيف الموقف:

-على الأقل، راح وزنكِ للمجهود الحربي، وأصبحت أجمل من قبل.

أمي تضيف:

كل واحدة تحكي قصة ميتها. غرق فلان ابن فلان. مات أبو فلان بعد أن دهسته سيارة مسرعة. احترقت فلانة عندما انفجرت أسطوانة الغاز في مطبخها. إنها دعوة عامة للبكاء!

امرأة تُنَبِّه ابنتها الشابة لأن تعيد تثبيت حجابها: «اخفي شعرك يا ابنتي». عندما تفلت العباءة عن رأس إحداهن، يتراءى شق الثديين عند زاوية فتحة الصدر، محمراً بفعل اللطم القوي، كأنها ضربات على طبل مكتوم صوته. أمي تسأل ميلي: «لماذا كل هذا التعذيب؟ أما يكفي أن فقيدهم رحل عنهم؟». تجيبها ميلي: «لا تستغربي، إنه تقليدهم، لكن في الوقت نفسه يقولون إنها عادة صحيّة أن يُثاروا حتى الوَلوَلة واللطم لكي يفرغوا حزنهم مرة واحدة، ولا يقطّعوه على وجبات فيما بعد فيصابوا بكآبة متأخرة».

رتل من شابات رشيقات طويلات، مثل أقلام فحم، يتقاطعن في طريقهن من المطبخ وإليه، حيث يتم تحضير عجينة التمر بالدهن لتوزيعها بين الفقراء على روح المتوفى. قالت واحدة لصاحبتها: «أرأيت فلانة دون مكياج؟ بشرتها تشبه شوربة بائتة، أليس كذلك؟». تكتم كركرة خافتة. إحداهن تمتص حبة هال، وأخرى تمضغ قطعة قرنفل طبيعي. عندما ظهرت الخادمة السوداء هَيلّة، بكرشها ومؤخرتها، تنبهت الفتيات إلى أن المطبخ ازدحم بوجودها. شرعن في الانسحاب بحركة مائعة، كأنهن أصابع بامية مسلوقة. كنتُ أحب طيبتها. نادت إحدى الجالسات، وكانت طبيبة بيطرية، تكلم صديقتها عن مفاقس الدجاج ومستلزمات التلقيح والفيروسات المنتشرة بين الكتاكيت مؤخراً. التحقت هذه بالمطبخ. أفضلُ أن أستبدل باسمها العريق، هَيلّة، بسكوتة الشوكولاته «أم العبد».

بعد قليل دخلت الصواني الفضية، المذهبة، البلاستيكية، القديمة، الجديدة، المستوردة، المستعارة، المؤجرة. فناجين القهوة تختلف عن فناجين أيام الفرح. فنجان العزاء ليس له عروة، يضطرب في ربعه الأسفل المستحلب القيري المُر. تطلب إحدى الزائرات أن يزيدوها منه. تقوم إحدى الحبابات بخدمتها بالمُنَبِّه، ترتدي صورة للكعبة بالأسود والذهبي على سلسلة تتدلى على صدرها. لا تضع غير كحل مكة في عينيها. تقول إن الزينة حرام ما عدا هذا الكحل. أما البقية فالعباءة تغطيهن من أعلى إلى أسفل. قد تُرى مصادفة يد صاحبتها تُسحب بسرعة تحت طياتها خوفاً من أن يُلمح طلاء أظافرها. إما أنها نسيت أن تمسحه، أو أن مزيل الطلاء نفد عندها، بعد أن استعارت صديقتها عبوتها ولم تُعِدها.

بكاء هنا وتباكٍ هناك. نساء يبكين بأسلوب متحضّر خاص، بينما تبكي بنت الجِيران بشعبية دون حرج. زوجة الدبلوماسي تجلس على مقعد، تدغدغ طرف أنفها بمنديل معطر مطرز الحافات، بينما تقرص بنت الجيران أنفها في منديلها الورقي فتكاد تشوهه. بكاء تلك المقيمة في الخارج، يختلف عن بكاء القابلة المترددة على العائلة. تولّد لهم حواملها. امرأة بدينة تضع في إصبعها شذرة توارثتها عن الأجداد. زوجة الدبلوماسي نسيت أن تنزع حلقة من ماس، تصرّ إحدى الجالسات على أنها شظايا الحجر، ثم تحلف أن سن «المُلاّية» الذهب أثمن منها.

التفتُ نحو ميلي، تحدّث أمي كيف أن صديقتها آن في شمال إنكلترا، أمرت بحرق جثة زوجها. احتفظت برماده، أودعته في ساعة رملية. وضعتها فوق رف في المطبخ، تقلب الساعة مرتين في النهار. ترقب الرماد ينتقل من العبوة العليا للسفلى، وهكذا. تحدثها قائلة: «آسفة يا زوجي العزيز، أنت لم تعمل طوال حياتك. قتلني كسلك، فقررت أن أجعلك تفعل شيئاً وأنت ميت». ثم ترسم علامة الصليب، طالبة من مريم العذراء الغفران له، ولها.

خنقتني الروائح المتناقضة بين بخور، وقلي كبّة من المطبخ، ومنظر جوارب النايلون التي تترك حزاً أحمر حول كواحل النساء في هذا الحر. لا يكسر حدة السواد، غير علب المناديل الورقية المبعثرة هنا وهناك، على الأرض بين سيقان ممددة، أصابها التشنج من طول الجلوس. بياض المناديل يرتفع وينخفض، أسماء العلب تتنزه بين الأيدي. زهور، عطور، ندى، سندس، الربيع، نسيم تتبعها ملاحظة، مئة منديل ورقي مزدوج. أم نضال أخذتها صَفْنَة عميقة في زخرفة السجادة. أرى زَبداً على زاوية فمها، لا تعي ما يدور حولها. استأذنتُ، خارجة إلى الحديقة من باب المطبخ الخلفي.

خروف مربوط عند الشجرة. أسنانه البشرية لم تتوقف عن المضغ. جاء فلاح يتبعه جزّار حاملاً عدة الذبح. ماع. مؤخرته تقذف كريات سوداً راحت تتبعثر منه. بادلني النظرات قبل أن ينهشاه من فروته متعاونين على حمله. طرحاه جانباً فنامت إليته المرتعشة على الطين تحته. ارتد رأسه إلى الخلف بقبضة الجزّار. انقلبت عينا الحيوان إلى أعلى. كتلة الصوف ترتجف لـ«بسم الله الرحمن الرحيم». تقيأ شق ضاحك في رقبته سوائل حمراً جمعوها في إناء كبير. وضعوه جانباً. غطس فيه فريق من ذباب، أكاد أتبين أرجله الشعيرية وقد اصطبغت بالدم. يجلس الاثنان القرفصاء. يتناول الفلاح إحدى قوائمه الخلفية، يُحدث الجار ثقباً بسكينه في الجلد الذي يعتليها. فتحة أعلى الحافر تُسحب بمطاطية. ستدخل فيها أنفاس آدمية بعد قليل. «انفخ الطلي من هنا!» ينفخان بالتناوب. رئتاي تنتفخان باحمرار وجنتيهما. طنين من نقاط سود يتطاير في أجواء المشهد. يؤتى بالحبل. يشنقون جثة مذبوحة منفوخة ويعلقونها من قائمتيها، ليقدموها هبة لرحيل المتوفى. وأنت أوصيتني ألا أخرج دون عشاء!

تلعب السكين في أغشية وردية غامقة. تتهدل الأحشاء، تهطل أفاعٍ مشرّحة ثقلها يُتعب غصن الشجرة. عملية السلخ تثير اشمئزازي. أغمض عيني مارة بزهرات الرازقي. لقد سكبوا على تربتها محتويات الإناء. يقال إن الرازقي ينتعش بالدم، وإن زهرة الكاردينا تفور لبرادة حديد تدفن في طينها. طعم ذلك الصدأ في فمي. أشعر بدوار. تمر من جانبي زهرات حلق السبع، ونبات مخالب القط، وورد الساعة، وفردات المستحية. دعتني إحداهن إلى العشاء. قرب المائدة الكبيرة بدأت النساء في التجمع. رأيت ظهورهن من الخلف أزواجاً من غربان ترتدي عباءات قصيرة تنقر الطعام بمناقيرها. سمعت امرأة بدينة تهمس لرفيقتها: «والله، مسكينة أم نضال، لا تستحق كل هذا». ابتلعت ملعقة متللة برز أصفر، فأجابتها عجوز تضع على عينها نظارة سوداء: «ستتعود على الحزن، مثلما تتعود العين على الظلام». قضمتُ كسرة خبز محمص. شعرت بتيبس في فمي كأني ابتلعتُ حفنة من حبات حنطة دون ماء.

داعبت الشمس قدمي. اغتسلتُ بماء بارد. نزلتُ من سطح الدار. ينزل معي ضوء الفجر السلّم حتى المطبخ. البيت هادئ تماماً، خِلافاً لما كانت خلافاتكم الأخيرة تجعل منه، بيتاً أشبه ما يكون بسوق النخّاسين. تسللت إلى الحديقة، في يدي قدح الشاي وقطعة معطرة من حلوى تركية. أمشي حافية على الحشيش، أفكر. تربعت على الدرجة الأخيرة المؤدية إلى الحديقة. أرقب قطة تحفر لتلقي أوساخها في الحفرة، ثم تحك فروتها بجذع نخلة، وذيلها في الهواء يرتعش. كم أرغب في رشها بالماء، لكن سيضايقني البعوض المختفي خلف ورق الأشجار، وسأثير الذباب. لم أعد ألعب كاش كيش، ولعبة اللاستيك، وكبي وتوكي، وشطيط، وشرطة وحرامية، وحلال دم الغزال. ابتداء من الأسبوع القادم سأبدأ نظام حمية قاسياً لأخفف من وزني. بعد أن تنبهتَ أنت إلى أنني أطول قليلاً، اقترحتَ عليّ أن أنتظم في طعامي من الآن فصاعداً. أنتظر منك جدول الأكل الأسبوعي. تشجعني، مؤكداً أنكَ ستشاركني نظام الحِمية، لنستعيد لياقتنا معاً.

فجأة! سمعتُ صوت سيارة مسرعة في الشارع. زعيق فرامل خارج بيت الحوش. تركت قدح الشاي وركضتُ. أحد شباب المنطقة سرق سيارة أبيه. دهس القطة المسكينة في طريقه. ارتمى الحيوان على جانب الرصيف. انفتحت بطنه تكشف عن شريط قان من حبات رمان ملتصقة ببعضها. تابعت السيارة المنعطفة بسرعة قائلة: «أيها الغبي!». عندها بلغني صوتكم من شباك غرفة النوم. معركة صباحية. حتى هدوء الفجر ستشاركانني فيه؟! إنه الحادث السخيف الذي أيقظكم. أمي تقول:

– أتعتقد حقاً أنك تعرف مصلحة الجميع؟ قلت لك إن قناعتي اكتملت. يجب أن نباشر في الأعمال القانونية.

– لن تباشري في أي شيء حتى أقرر بنفسي.

– ماذا؟ هل سأظل تحت رحمة قوانينك؟ حقاً تتصور أن الحياة عبارة عن مكعب ثلج يطوف في كأس مشروبك؟

–صدقيني، لنرجئ الموضوع قليلاً. لننتظر إلى أن تنتهي من امتحانات البكلوريا. دعيها على الأقل تتجاوز عمر القصور.

– لا يهمني. لتبقَ معكَ إن شاءت. تستطيع زيارتي عندما تريد.

– اهدئي وتريثي. أنا واثق مما أقوله. ألا يكفي ما تواجهه المسكينة في هذا البيت؟

– عندما تكبر ستتفهم مشاكلنا، وتسامحنا.

– لماذا نسوّد لها نظرتها للحياة منذ الآن؟ لماذا نفرض عليها واقعية مزعجة قبل أن تهنأ ولو بقليل من سعادة؟

– !Jesus حقاً لا أفهم السعادة التي ترجوها لها. ستصبح امرأة عن قريب، ثم تكمل دراستها، ثم تتزوج، وتنجب في هذا الحر. هذا كل ما في الأمر.

– أهذا ما لديك؟ بدلاً من أن تتمنّي لها حظاً أحسن. لا عتب إذن عندما أراها حزينة بمفردها وأنت تسلطين كآبتك عليها هكذا.

– كآبتي؟ أم ذلك العزاء الذي حضرناه لساعات ظننتها لن تنقضي؟

– أصبح نَفَسك ضيقاً. لم تعودي تتحملين أتفه الواجبات. ممَّ تتذمرين؟ ألا تعيشين الحياة التي تريدينها وقد حصلتِ على حريتكِ؟! أم هل وعدك بالزواج، ها؟

– لا تكن وَغْداً معي. أنت الذي ترفض أن تطلق سراحي. هل تظن أنني كرة قدم تنتظر أن تركلها؟

– لأجلها، ولأجل مستقبلها فقط سأتحمل هذه الإهانات. ما عدا ذلك يسعدني أن أخبرك أنني فكرت طويلاً في موضوعنا. لم يعد يهمني ما تفعلينه في حياتك الخاصة، بشرط أن تحمي سمعتها قدر المستطاع. أما عصمة الطلاق فبيدي. لا يمكنك التحرك دوني، تذكري ذلك جيداً.

–ها ها، التفاني الشرقي للأولاد! أنت تُخَرّف، ستمضي حياتكَ بأسرع ما تتصور. ستنظر إلى الوراء وتقول لنفسكَ ماذا فعلت بأيامي؟

– بل سأترك هذا الاكتشاف لك يا عزيزتي.

بعد ذلك، وجدتكَ في المطبخ تهيء الشاي. قلتَ: «صباح الخير»، دون أن تنبس بكلمة أخرى.

عدنا إلى البحث في اللون أمسية الجمعة التي تلتها، يسيطر على جو الغرفة مزاج جديد. لم يرغب أحدنا في الحديث في موضوع أمي أو ميلي وديفيد. تناولنا حلقة من جدول اللون الأحمر، نناقش تدرجاته واحتمالاته. قلتَ بشيء من ملل:

– إنه أحمر دموي.

تركناه جانباً. بعد قليل اقترحتُ عليكَ:

– زوبعة حمراء.

هززتَ رأسكَ ببطء:

– ممكن.

ثم قلتَ:

– فجر غامض أفضل.

– ألا يشبه أحمر شفاه كذلك؟

– نعم هل تريدين تسميته أحمر شفاه؟

– مثلما تحب أنتَ. سمعتُ «همم» طويلة.

كأنكَ ضجرتَ، اقترحت عليّ فجأة:

– لننتقل إلى هذا اللون، أنا أقول أعشاب البراري.

عَقبّتُ:

– وأنا أقول إنها ساقية أعلى الجبل.

– هذا إسم طويل.

– إذن، فستق مُعتّق.

– نعم، فهو يعطي هذا الإيحاء.

ثم أشرتَ إلى بطاقة أخرى:

– ماذا تقولين، صفار زبدة؟

– لماذا لا يكون عرموط وزنجبيل.

قلتَ بابتسامة:

– آه جميل، أو نسميه سطح الأهوار.

استمرتْ الليلة تتقافز بين تسمياتنا الطازجة. ليمونة خجلى–خيال الياسمين– ماء الورد– المستكي– دقيق جوز الطيب– فحمة المداخن –بنفسج العشق–الفانيلا الفرنسية–زبدة فستق العبيد–كرز بالكولا.

فجأة! كأنك رجل هبط من الفضاء، قلتَ لي:

– ابنتي، يجب أن تعرفي شيئاً مهماً جداً.

– تطلقتما؟!

– لا. الحرب قامت مع إيران.



– فاروق، دعك من الطوارئ المؤقتة التي نعيشها. أنا أهيئكم لأيام ستنظرون فيها إلى هذه كما لو كانت سوالف، وربما ذكريات لبعض التدريبات القاسية. لكن يجب أن نقسو على أنفسنا لنبرر جهودنا.
بعد قليل، أضافت بنبرة جديّة:
– أنا أشكركم لتمسككم بالحلم معي، فلولا حضوركم لن نتمكن من إنقاذ ما يمكن إنقاذه.
يعقب فاروق:
– هذا إذا لم تُستدعَ مواليدنا للالتحاق.
كانت فكرة الجبهة ترعبه. قرر أن يبقى في الفرقة عسى أن يُعفى من الخدمة العسكرية باعتبار أنه سيخدم المسرح بعد تخرجه قائلاً بهمس أيضاً:
– لن أفلح في حمل السلاح، والأجدر بهم أن يَدَعوني أرقص للوطن.

أمي تصرّ على أن نغلق جهاز التلفزيون لنتمتع بنسمات المروحة دون أصوات. تقوم أنت بإسكاته لكن الصور تتابع. انفجارات تتوالى في صمت. جنودنا يتقدمون وجنودهم أبعد من الأفق الذي يقطع الشاشة. الشخوص تركض، تزحف، تتدحرج، تلقي بنفسها في ماء السواقي، أو حلقات النار، أو خلف جدران متهدمة. تتزاحم دبابات، ناقلات، مدافع صواريخ أرض أرض، قناصات، راجمات، أسلحة يدوية، أقنعة واقية من السموم. بدلات جنود المشاة. البيريات تعتلي الرؤوس، الأحزمة تقطع أجسام المقاتلين من خط الخصر. نصفها الأعلى مشدود بشجاعة، والنصف الأسفل يجري في جميع الاتجاهات. الجزمة العسكرية لا تحمي الأرجل من حقول الألغام. خاكي يحارب خاكي، والجثث تبدأ بالتساقط هنا وهناك.

استدارت المدام مدركة تماماً لجمال بروفيلها الذي يستدير معها في المرآة:
– «بجالستا». عندما نتطرق لموضوع الرقص، لا تنسوا الفرق بين الراقصة و«الرقّاصة»، كما أطلق عليّ بعضهم عندما عدت من بلاد الثلج. تركت الاتحاد السوفيتي، لأن الإمدادات المالية الحكومية انقطعت عني بسبب الحرب في السنة التي سبقت تخرجي. اضطررت للعودة على أول طائرة، لأنني لم أملك وسائل استمرار دراستي فأصبحت بذلك «رقاصة دون شهادة»، وهو ما زاد الطين بلة في حياتي الفنية التي أحاول تثبيتها في الشرق. أما هناك فكنت ملقّبة بسمراء معهد سيبيريا. منحوني شهادة رمزية قبل رحيلي. ودعتني مديرة المعهد بكُرتي ثلج رمتهما خلف ظهري وأنا أغادر. الجميع دعوا لي بالحظ السعيد والعودة القريبة.
تنهدت وهي تضيف:
– يا للمفارقة! لا تظنوا أن الدرب سهل. إن كنتم ستهربون عند منتصفه، فالأفضل أن تعلنوا ذلك الآن.
لم يعلن أحدنا شيئاً. مكثنا قابعين على الأرض. يتبادل التوأمان نظرات بأعين دون أهداب، كأنهما زوج من سمك أشقر.

بدأنا نعتاد على مناظر المناورات، القصف، القصف المضاد، بيانات الحرب المفاجئة والمتوقعة ابتداء بـ«بسم الله الرحمن الرحيم» وانتهاء بـ«فليخسأ الخاسئون». الأغاني الوطنية، السلام الجمهوري، آيات القرآن تُختم بدعوة أن الشهداء أكرم منا جميعاً. الألوان بدأت تختفي. أصبحت الحياة المدنية حرباء خاكية تنتصب أذناها لصوت غارة جوية تتجول بصمت في شوارع معتمة حتى يمنع تجولها.

أنزلَت المدام محاضراتها علينا كالمطر. أدخلتنا في الفيزياء، تشرح لنا أن أجسامنا ستستقر على تقنية الميزان الواقف والموازنة المتحركة والعتلات. قامت بتشريح كل واحد فينا، تبين للآخرين مواطن القوة والضعف. قضينا ساعات طويلة تحت إصرارها على أن كلمة «عيب» يجب أن تُتْرَك عند البوابة قبل دخولنا.
– أريدكم أن تفهموا أجساد بعضكم بعضاً جيداً لأننا فرقة واحدة. هذا يعني أننا سنتحرك كجسد واحد. الحرج والحياء لا يرقصان معنا. يجب أن نتجاوز موضوع مادية الجسد، هذا هو فن الباليه.
عندما تصيح فينا «مفهوم»؟، تكون أنفاسنا قد تبعثرت في أرجاء القاعة لا نقوى على إجابتها.
– الرقص منطق. حركات الجسد منطق. وجودكم هنا منطق. التناسق هو الأصل قبل أن يدخل عليه عنصر الموسيقى.
نلقي نظرة على عازف البيانو المأجور الذي ينتظر تعليماتها كأنه في محنة. نعلم جميعاً أن أرنبة أنفهِ مثقوبة، ربما كان يأمل أن يُعْفى من الخدمة بفضلها.
– إن التنسيق بين حركة الذراعين والساقين والوجه هو العمود الفقري لكل خطوة. احرصوا على التنسيق قبل التصميم. لا تفكروا في الانطباع الذي ستتركونه على الخشبة، بل أنصتوا لالتواءات مفاصلكم ودعوها تحدد لكم خبرتكم في إدراك الذات بدلاً من الجري في جوارب سميكة تُبرِز أعضاءكم للجمهور ليس إلا. والآن أريد من البنات أن يتسلقن جذوع الأولاد مثل اللبلاب.
فتح أحمد ذراعيه يحاول استقبال سارة، قائلاً بأسنانه البيض الكبيرة التي تتحدث نيابة عنه:
– تعالي سوسو، لبلبي كما يحلو لك.

بعد قصف مدينة مندلي، تلتها مدينة خانقين ومدينة زرباطية والمنشآت النفطية في نفط خانة ومنشآت بترولية في البصرة. أعلن البيان ذلك اليوم: «إن قواتنا الجسور باغتت العدو وكبدته خسائر فادحة، منها تدمير 11 دبابة و24 عجلة و4 شفلات وناقلة أشخاص وطائرة سمتية. انتهى القصف بانهزام وأعمدة دخان وألسنة نار خلفتها الاشتباكات العنيفة».

لا يفصلنا عن العالم الخارجي غير المرايا الهائلة التي تعكسنا إلى الداخل. حز من أسطوانة خشبية تؤطر القاعة عند منتصفها، تدور كالحبل حولها، تمسكها أذرع من حديد هي مسندنا في التمارين. كان ذلك المسند الخشبي يخفي عيوب توازننا، فتصيح المدام دائماً:
– بجالستا، ابتعدوا عن المسند.
علمتنا الإقلاع بدلاً من القفز، تتخيل لنا أنهاراً وهمية تنتظر أن نجتازها. أقواس قزح تريدنا أن نمر من تحتها وأنوفنا في الهواء. جعلتنا ننساب من بين أيدينا، تؤكد لنا أن الانزلاق غير المشي. في ساعات تدريب البنات على أطراف الأصابع كانت تصرخ فينا أن نكف عن تناول الأطعمة الدسمة. تطلب منا أن نحشو أحذيتنا الخشبية المدببة جيداً بالقطن، لنحمي أصابعنا من جروح الاحتكاك. كم كانت تزعق:
– يا بنات يا متخشبات، سأشرككن في مسابقة كوبيليا لهذا التصلب. بحق السماء تحركن أسرع.
كان كل شيء عندها نظاماً، وتنظيماً، وتوقيتاً محكم الدقة.

وجدنا صعوبة بالغة في اللحاق بحلمها. يحضر أحمد مرتدياً نعاله الجلد «باتا»، لتهوية قدميه، متأخراً عن الدرس. كأنه يتفضل على المدام بما تبقى له من وقت، يقول:
– آسف يا جماعة أخرتكم، لكنني شغلت سيارتي تكسي، وآخر جولة أخذتني إلى الصوب الآخر من المدينة.
يدخل بكل برود إلى منازع الأولاد. تنتظره المدام عند الباب. يخرج منها جثة ضخمة ترتدي سروال التدريب. ضَربت صدره قائلة:
– يا سلام، من تظن نفسك، سبارتاكوس؟ هذا آخر إنذار تأخير لك، وإلا سنقلص عدد الفرقة قريباً.
يبتسم في وجهها. يعلم جيداً أنها لن تجد من يعوضه وفاروق، فالشباب في الجبهة، والشابات يتزوجن، وبقية طلبة المدرسة لن يعودوا بعد أن قُبلوا في المدارس الأخرى. منذ أن عمل أحمد صاحب سيارة أجرة كان يجلب معه أخبارنا المحلية. أسعار الطماطم. عمليات التحرير. احتفالات النصر. نتائج القصف المعادي. آخر إصدارات مديرية الجوازات. فعاليات وزارة الثقافة والإعلام. آخر الكتب المترجمة. تصدير إيرانيين واستيراد مصريين. آخر نكتة من مجلة زألف باءس. ومرة جاءنا بشظايا من الصاروخ الأخير.

مرّت أسابيع بدت طويلة، تنزل خلالها لائحات تصنيف أولويات الحياة المدنية، وفصل الضروريات الاستهلاكية عن الكماليات. انتهت بقرار منع السفر لغير رجال الأعمال والمرضى أو المرافقين لهم أو المقيمين في الخارج. قلَّت نشاطات السفارات الأجنبية، ثم بدأت بالعودة إلى بلادها تاركة جنديين لحراسة المبنى ونقطة تفتيش. أصبح حضورها مقتصراً على سفارة مجاورة ترعى لها مصالحها. قلَّ عدد الأجانب والأساتذة المستوردين خاصة عندما ازدادت الغارات الجوية. تضررت بعض المواقع القريبة من بغداد. أصيبَت بعض البيوت السكنية في منطقة الكرّادة وزيّونة والمنصور. زاد قلقنا عندما لمحنا من شباك القاعة، قاعدة عسكرية مضادة للطيران، تتوسط حدائق متنزه الزوراء، عند نافورة العشاق.

انتصبت المدام بجذعها. مسطرة من أربطة من مطاط سميك أسمر. لا يهمها كم تثنيه وتمده، كأن مادة عظامها لا تنتمي للبشر العاديين. قالت:
–الفرنسيون يقولون إن الكمال يعني الموت. والباليه يهدف إلى الكمال، فتخيلوا أنفسكم، وقد وصلتم إلى حد الموت بالتدريب، دون الاستسلام له حتى ينتهي العرض.
لم نعلم على أي عرض تتكلم. كأننا جميعاً في انتظار تعليماتها السرية لإتمام مهمة عسكرية قد نعود منها أو لا نعود. مع ذلك بدأنا نشعر بمعنى جديد لكل درس. الموسيقى، الخطوات، الحركات الخمس، تعبيرات الفرح، الحزن، الخوف، الانتقام، الجرأة، الكوميديا، التصميم، الكوريوغرافيا والقصة. أدخلتنا عالماً من التحمل، نقسم في نهاية كل درس أننا لن نعود، خاصة عندما منعتنا من شرب الماء بين وقفات التدريب. عند فترة الإحماء لكل محاضرة جديدة، ينتظر الطالب الذي سبق الآخرين إلى المسند الخشبي، متسائلاً، تُرى هل ستأتي البقية؟ حتى فاروق، الذي يتأخر أحياناً لوقوفه عند حانوت الجمعية في طابور شراء البيض لأهله، يحضر في النهاية.

بيان عسكري: «استطاعت القوات المسلحة نصب جسر على نهر الكارون. أجرت العبور عليه قاطعة محور عبادان شيخ بدير والسكة الحديد. أحكمت طوق الحصار على عبادان. يعتبر عبور نهر الكارون أول عبور لمانع مائي في تاريخ الجيش. يمتد نهر الكارون من شمال إيران ويصب في شط العرب، وفرع يتجه إلى الجنوب العربي. يتراوح عرضه بين 400 و600 متراً، ماراً بأراضٍ مفتوحة وبساتين مزروعة».

أدخلتنا عالم الإيقاع. تصيح فينا «تيمبو يا جماعة تيمبو». ترينا نماذج حركات ساقيها الدائرية في الهواء وأداءها من «ليغاتو» إلى «ستاكاتو»، تلعب مفاصلها باحتراف عجيب. سيطرة تامة على العضلات. حِدَّة في النظرات. ليونة تامة في جذعها. أناقتها مذهلة عندما يستدير بروفيلها مع حركات زواياها القائمة. حيويتها في الـ«باتمان تاندو» والـ«بيرويت» كأنها تعيد خلق نفسها مع كل دورة. «السبور دي برا» يجعلها ملكة على أطراف أصابعها وهي ترقص «أداجيو» كأنها تخلصت من كل أثقال جسدها مع الخطوة الأولى. هكذا تكلمت عن الحرية وهي تراقص نفسها، تحدثنا عن زهرات من ريش تنزلق فوق إناء من فضة. رسغاها يتلولبان في تناغم تام مع كاحليها، وردفيها، ورأسها في وقفته وتأنيه وتأمله في بساطة الحركة أو تعقيدها، طولها أو قصرها، تصلبها أو ليونتها، في مدها أو شدها، في جو من أسود وأبيض، أو جو من ألوان نفسيتها. عندما ترقص نعلم أنها تتحرر.

انحصرت حياتي بين محاولات للتخرج الأكاديمي ودوامي ثلاث مرات في الأسبوع لأتدرب مع فرقة المدام. ألتقي في الساعة الرابعة عند سلالم الدخول بسارة التي تظهر في إطار البوابة. هزيلة قادمة من مجاعة. عظامها الناعمة تبرز من تحت جلدها الشاحب كعصفور منتوف. نبرة صوتها لا تكاد تُسمع، كأنها قصبة سكر خاوية، تنفخ فيها الريح فتصفر بخفوت. تجرّ خلفها أختيها التوأمين تنافسانها في الشحوب والنحافة. زوج أسماك مسطحة، لها سيقان رفيعة أقرب إلى الكسيحة، يطلق عليهن فاروق مازحاً «جاءت عيدان الكبريت». عيونهنّ، مع تلك الحواجب المرتفعة إلى أعلى، خالية من التعبير. الأجفان المترددة في انغلاقها تشبه ستارة مسرح متهدلة تُركت مفتوحة من منتصفها. سارة وأختاها يشبهن «بينوكيو» مكرراً ثلاث مرات. ينزلن السُلّم مربوطات بخيوط الدمى المتحركة. قيل إن أمهن من أم فرنسية تشبه امرأة «بوباي». فاروق يحب مداعبتهن. يقيس درجة انفعالهن، يسألهن أحياناً أين يخفين زعانفهن، وإن كنَّ يتعرقن مثل بقية البشر؟! إذا وقفت الأخوات في خط مستقيم، يصطف من الخلف رتل من شعر ملموم بشكل كعكات شقراء. تستعد أقدامهن المنفرجة لخطوة الرقص الأولى.

بيان: «تمكنت القوات من إتمام عبور نهر الكارون رغم القصف الجوي والمدفعي. استطاعت الاندفاع باتجاه عبادان قاطعة الطريق العام لنسف أنابيب النفط الموجودة في المنطقة. تمكن جحفل المعركة من التمركز في الضفة القريبة. عبر فوج مشاة بالزوارق والأطواف المائية. اندفع معه الجهد الهندسي لتحسين المعابر وتسهيل عملية عبور الدبابات والناقلات والعجلات. كان لظاهرة المد والجزر الطبيعية تأثير نسبي على المعابر، مما أدى إلى تغريز بعض الدبابات، لكن الجهود المكثفة تغلبت على الصعوبات».

يقدم أحمد بنعال «باتا»، تتدلى من جيبه حاملة مفاتيح سيارته معلقاً بها قطة بيضاء يسميها «دنفش أم الحظ». يستدعي فاروق للتعرف إلى صديقته الجديدة التي تنتظره في السيارة. يتبعه فاروق بحماسة ليصافح الفتاة البدينة التي تملأ المقعد الأمامي. عند عودتهم للقاعة يسأله: «ألم تجد أسمن منها يا أخي؟! ماذا يغذونها طوال النهار، خميرة؟» يضحك أحمد عالياً. تقول أسنانه: «يا عزيزي، ألا ترى أننا مَللنا فتيات القصب اليابس؟». عندما يعلن بهمس «جاءت وجه الطبَق»، نعرف أن المدام حضرت أخيراً.

تُدخلنا في الكلاسيكية مرهَقين على أطراف أصابعنا بين تداعبات الشوبانيات وإنصاتنا لمقاطع من رحمانينوف وشرحها لنا فوكا من باخ. نمسح الأرض بأجسادنا في رقصة حديثة، تتساقط

– وأكثر سمرة من قبل بسبب تلك التمرينات العسكرية القاسية الإجبارية في شمس الظهيرة.
تلتفت نحوها:

– اهدئي عزيزتي، الحرب حرب. يجب أن نتأقلم مع الجو هذا.

سكينة نزلت عليكَ، تمشي في أرجاء البيت توزّع قطرات من طمأنينة مثل رشاش ماء الورد في الجوامع تنثرها هنا وهناك. سألتك:

– بابا، هل ستلتحق مثل البقية بخفر الجيش الشعبي؟

أخذتني بين ذراعيكَ قائلاً:

– ابنتي تقلق عليّ، لقد أصبحت رشيقة إلى درجة لم أتصورها. ما هذا الخصر الذي أستطيع أن أطبق عليه بقبضتي، لا تقلقي أكثر.

تتكلم كأنك قديس يتنبأ، لكنه يخفي الحقيقة عن الآخرين، فأقاطعك بشدة:

–بابا بلا مبالغة! إن مجرد رؤيتي لحدود خصري لا تجعلني رشيقة. ولو، لا أستطيع التصديق أنني كنت قبل أشهر فقط، من ذلك القطع الكبير، لكن...

فتضيف مسرعاً:

–لكن ستكونين عروساً جميلة يوماً ما. لنصبر قليلاً على هذه المحنة المؤقتة. بالنسبة لي لن أذهب لتدريبات الجيش الشعبي أو الدفاع المدني أو الإسعافات الأولية. أهل القلب معذورون.

تركتكم. تجذبني المرآة الكبيرة في غرفة أمي. وقفت أمامها، أتأمل صاحبة الجسد الجديد، كيف طالت أكثر ورقّت. قمتُ بحركة الرقص الأولى حتى الخامسة. أتأمل بروفيلاتي من كل جانب بعد أن رفعتُ شعري بما يناسب الوقفة. لأول مرة في حياتي أتودد لخيالي المنعكس أمامي. رفعتُ ذراعيَّ إلى أعلى، التقت الأصابع، يؤطر وجهي قوس مني. أملت رأسي يميناً قليلاً ويساراً قليلاً مثل مبتدئة. أشعر بحضور كامل لكل زاوية ناعمة من جسدي، حتى سمرتي لم تعد تضايقني. رفعت أنفي في الهواء أشم السكون الذي يلفّني، إنه لي. قفزتُ «جيته» واطئة، ثم أخرى أعلى وثالثة أعلى. وزني بخفة خيالي. حاولتُ حركة «سيسون» وذراعاي إلى أعلى مرة ثانية. رحتُ أكررها مرة بعد أخرى مثل مقص ينفتح وينغلق على البقعة، غير مصدّقة أنني أتقافز بسيطرتي. لم أعد أهبط بصوت أشبه بارتطام. بدأتُ أسمع ما يجري في مفاصلي، أو كعب قدمي، وأنا أنحني في سلام افتتاح وسلام ختام. أشد، أرخي، أمد. أتمطى بجسدي مثل قطة، مرة أشكّل قوساً مقعرة إلى الداخل، وأحياناً كأفق يوجه بطنه إلى السماء.

صوت المذيع يلاحقني من بئر عميقة: «يؤلف الطرفان المتعاقدان، لجنة مختلطة من الدولتين، لوضع الأموال المنقولة والمباني والمنشآت الفنية وغيرها، التي قد تتغير تبعيتها الوطنية نتيجة لتحديد الحدود النهرية، إما بطريق التخالص أو التعويض، وأما بصيغة أخرى مناسبة لتجنب أي مصدر للنزاع». التهم جملته الأخيرة قبل انقطاع الكهرباء.

أتحسس عضلاتي وعظامي ورقبتي وهضابي الصغيرة. أعطي للمرآة ظهري، متأملة أكتافي وخصري. ينبثق جذعي من منتصف تفاحة سمراء شُدَّت جوانبها بقشرة لامعة متعرقة. اتخذت وضع بحر نائم، وضع شجرة ترتجف، وضع شمس تتدحرج. أحاول استذكار تعليمات تدريباتي القديمة. قلَّدت رقصة الشكر، وضربات غجر، وخطوات «رابسودي» إسبانية. رميت جناحيّ إلى خلف أتقمص البجعة الحائرة. أتلاعب بكاحليَّ، يدوران حول نفسهما بتقطعات من نَفَسي، ورسغاي يتبعان أوامر التفاتاتي.

جذعي ينطبق إلى الجانب لتلمس أطراف أصابعي مشط قدمي، ثم يعود فينتصب بأمر مني. ليونتي تستفيق من مخابئها. الدلافين الصغيرة أخذت تسبح في المجرى. بدأت أطوف في عمق المرآة. نفق من جليد وفضة.

فجأة! عاد التيار الكهربائي. التلفزيون يُعبّر عن نفسه، مثل ضيف غريب، فزع من نومة غير مقصودة على الأريكة: «الفقرة التالية شرح للمادة الخامسة. في نطاق اللا مساسية بالحدود، والمراعاة الدقيقة للسلامة الإقليمية للدولتين، يؤكد الطرفان أن خط حدودهما البري والنهري متعذر مسه، وأنه دائم ونهائي». صوت المذيع الأجش يأتيني من تحت يعلن صوراً من المعركة.

في المدرسة علّقوا للطلبة خرائط جغرافية الحدود مع إيران وصوراً للمشاكل الحدودية. شرحوا لنا اتفاقيات بداية القرن. تصحيحات لاتفاقيات. معاهدات. تعقيبات. إضافات إلى معاهدات. ملحقات لبروتوكولات. محاضر تخطيط للحدود. اجتماعات. لقاءات. رسائل وزارية. تهديدات. ثم بدأ التصاعد. من خرق الاتفاقيات وكل توابعها، إلى اختراق الأجواء بالطيران. أزيز الطائرات العسكرية، في إقلاعها وهبوطها في مطار المثنى القديم، يطغى على صوت الآلات الموسيقية. امتلأت الصفوف بالشعارات وعلامات النصر. بدلاً من دروس اللياقة البدنية الصباحية، بدأنا نأخذ محاضرات خاصة بالتوجيه السياسي والثقافة القومية، وبعض إرشادات الدفاع المدني.

لم تُحظَر دروس الرقص أو الموسيقى، لكن المديرة قرأت علينا القرار الأخير بشأن مدرسة الموسيقى والباليه. وضحت لنا أن البعثات إلى الخارج قد أُلغيت بسبب الظروف الراهنة. قد يحصل طالب متفوق واحد فقط من المدرسة كلها على سفرة قصيرة إكراماً لجهود تفوقه. أما الطلبة المتخرجون بشكل اعتيادي، فلن يكون لهم الحق في إكمال دراستهم في الجامعات الاعتيادية. ستلغى مقاعدهم فينتهي حال الطالب إلى خيارين. إما أن يستمر في تخصصه في الرقص أو الموسيقى، إذا وجد المعهد المناسب بعد تخرجه لإكمال دربه، أو أن يترك المدرسة بشكل نهائي في الوقت الحالي ليتسنى له الالتحاق بمدرسة أدبية أو علمية، فيحق له التقدم إلى إحدى الجامعات فيما بعد.

هكذا أُدرجت حياة المدرسة في لائحة الكماليات. بدأ الطلبة يهيّئون أنفسهم لتحويل أوراقهم إلى المدارس «الواقعية». قلَّ عدد الطلبة للنصف. أُغلِقت قاعة هنا وصف هناك. ترَكَنا الفرّاش خوشابو بمكنسته وشاربيه الكثين، ليعتني بزوجته المريضة في البيت، بعد أن التحق ولداه بالخدمة العسكرية. ارتبكت المدرسة. عمّت فوضى اتخاذ القرارات المصيرية وتسليم الآلات وملابس الرقص. البعض يبرر تركه المجال الفني والبعض الآخر يبرر بقاءه. ودعنا الراحلين مطلقين عليهم «المتخاذلين» فاستداروا عند بوابة الخروج وسمونا «البطرانين» كنتُ على وشك أن أكون من المتخاذلين، لولا المدرّبة الجديدة التي داومت عندنا قبل أسبوعين، بعد عودتها مؤخراً من الاتحاد السوفيتي. شيء ما في سمرتها جعلني أعيد النظر في موضوع مغادرتي مع الآخرين، وهي تقول لي، بعد أن تعارفنا في إحدى الممرات، «سأجعل منك فراشة».

التحقتُ بها، رغم تعليقاتكَ يا أبي بأن اندفاعي سيُدرج قريباً في قائمة «التقشف العام» والنشاطات التي أُطلق عليها «لا داعي لها» تحت الظروف الراهنة، و«سياسة التجميد المؤقت»، مثلما قرروا أن مشروع المطيبات يجب أن يرجأ إلى إشعار آخر قائلين: «الله كريم، عندما تنتهي الحرب إن شاء الله». تقفز المدام فأقفز خلفها. تسكن المدام أسكن معها. تزعق المدام أنتظر حتى تهدأ فورتها. كانت تفقد صوابها لأبسط خطأ، أو تباطؤ، أو أدنى تأخير عن موعد التدريبات. لم نجرؤ على تسميتها غير المدام. الحرب ما تزال قائمة في الخارج تقتسمها الجبهة والتلفزيون والراديو الذي لا يفارق أذنكَ في البيت. تحاول أمي أن تفهم لماذا أخذوا مولّدة الكهرباء معهم، وهي تفتح البريد الذي يأتيها من إنكلترا بيد أحد معارفها. كنا نطير في انعكاسات المرايا. لا يهمها إن كنت سأفقد وعيي في الحر، ما دمت تحت الاختبار.

تطور الصراع إلى حرب عدوانية. بدأ قصف الأراضي والمدن الآهلة بالسكان بالمدفعية الثقيلة. احتشدت القوات على الحدود. نفير عام. أغلق شط العرب ومضيق هرمز في وجه السفن.

أدخلَتني روتيناً قاسياً من تدريب إسبوعي مضن. تكرر أن الفن أخذ منها ثماني ساعات في النهار، على أطراف أصابعها، في أجواء ما تحت الصفر. ثم دعتني لمشاركتها دورتها الصيفية للهواة الذين لم يحضروا يوم الاشتراك. حلمها بإنقاذ المدرسة تجسد في النهاية في فرقة صغيرة من ستة هواة فقط، بعد أن هجر الصفوف غالبية الطلبة الأصليين. غادروا بوابتها الكبيرة في بحثهم عن مستقبل عملي أفضل. أما نحن فحاولنا جهدنا أن نتغلب على تعلقنا بها، وهي لا تكفّ عن تأنيبنا، ونهرنا، وكسر معنوياتنا في ذلك الحر. لكن، هذا السحر في سمرتها، وهي تتكلم عن الحلم وأمل النهوض بالمسرح بعد انتهاء الحرب، جعلنا نلازمها كظلها.

تعارَفنا مع أحداث أرض المعركة عبر أخبار الاشتباكات العسكرية التي اندلعت في موقعي زين القوس وسيف سعد. تعلمنا مصطلحات «الأراضي المغتصبة»، «استرجاع كامل الحقوق العربية»، «حماية أرض الوطن»، «دفع العدوان» في سلسلة من دروس توعية جديدة. كلما تبرعنا بالمزيد من التدريب زادت قساوتها معنا، خاصة عندما جاءنا قرار إلغاء تمرينات «بحيرة البجع» ليُستبدل بها سيناريو «عروس مندلي» التي فقدت ذراعيها ليلة زفافها إثر هجوم دموي.

أول محاضرة للمدام كانت عن الضوء. وقفَتْ في مركز القاعة الكبيرة. تربَّع أعضاء الفرقة على الأرض حولها. جلستُ بين أحمد وفاروق، جلست سارة بين اختيها التوأم. قالت:

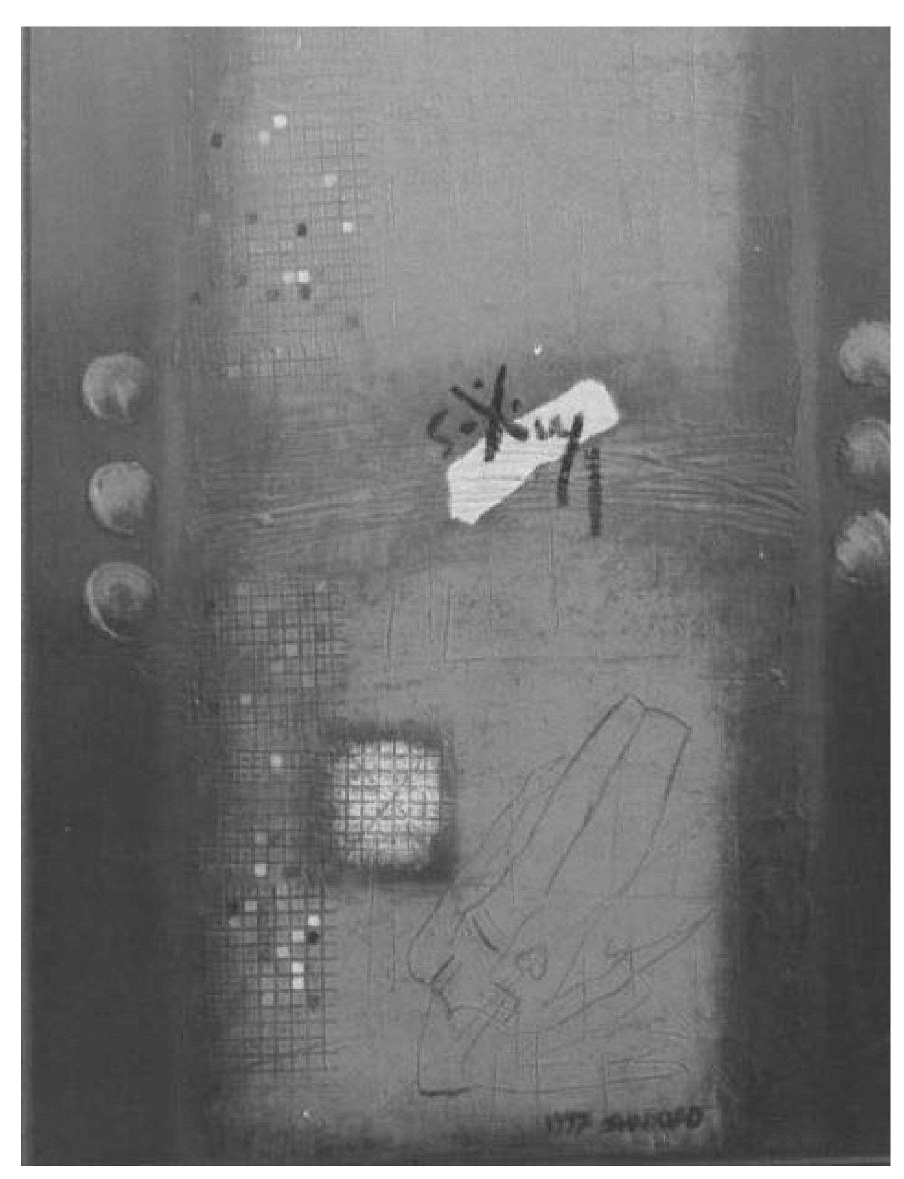
– كلنا يعرف أن الضوء لا يخرج من العين، وإنما نحن نرى الأجسام عندما يسقط عليها الضوء، فتتجسد هياكلها، وتتكون صورتها على ما يعرف علمياً بالشبكية.

بدأت تتمشى. أخذ دب الباندا الأسود والأبيض المطبوع على قميصها يتجول بيننا. تتكلم بهدوء وثقة:

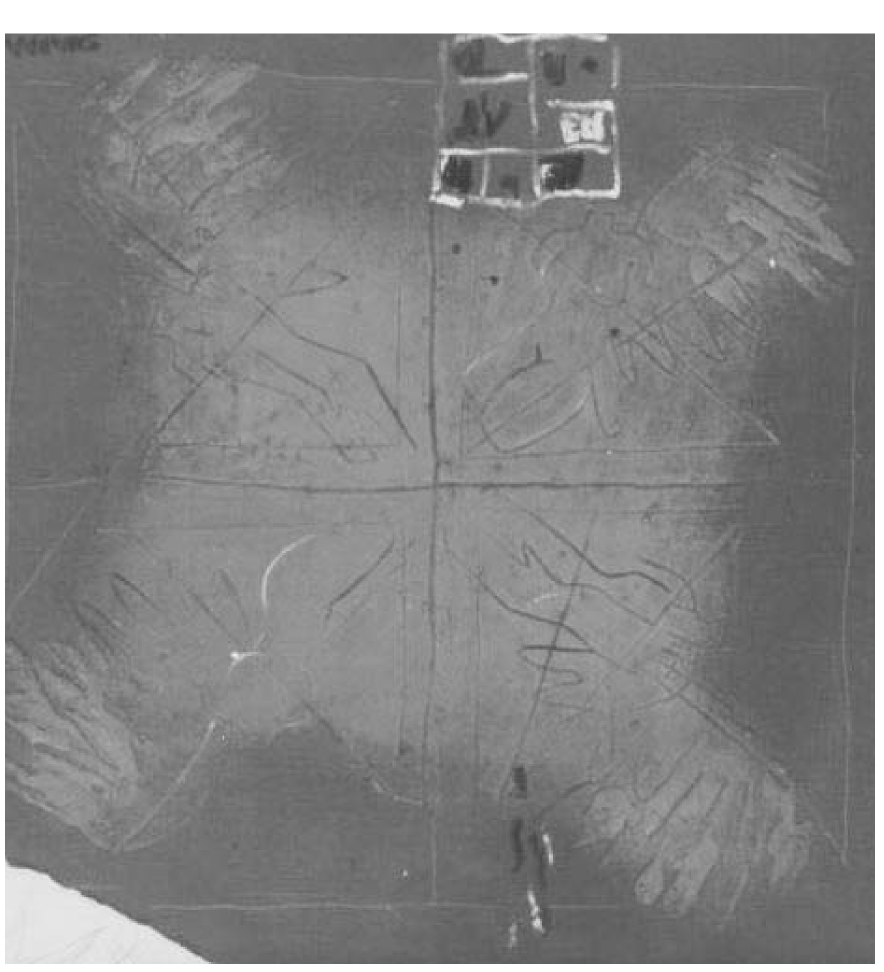
– الشبكية التي نتحدث عنها في الباليه هي الجمهور، فعنده ستنعكس حركات أجسامكم في ثنايا الظل والضوء الذي يلفكم. بالضوء سترقصون بجمال أو بقبح، وفي الظل سترقصون بجمال أو بقبح أيضاً. السر يكمن في تموجات عضلاتكم المتمرنة مع تموجات تقنية صاحب الإضاءة من فوقكم. سيكون هو الإله الذي يمدكم بالنور، وأنتم يا صغاري، سترقصون وتخلقون الحياة في بحر من ظلال.

حديثها كان أكبر منا. فاروق يهمس في أذن سارة: «ماذا لو انقطعت الكهرباء؟»

تقاطعه المدام بابتسامة:







عسكرياً في المناطق الحدودية البرية والمائية بين الدولتين. تم استخدام المدفعية الثقيلة والطائرات، لقصف التجمعات السكانية والمنشآت الاقتصادية والسفن التجارية العراقية والأجنبية، الداخلة والخارجة من شط العرب وقنواته الملاحية. سلسلة من معارك: الخفاجية الرابعة والأحواز وغرب الكارون، ثم معركة المحمرة ومعارك شرق البصرة. كانت الخسائر الأخيرة 6500 قتيل، وإسقاط 11 طائرة مقاتلة، و20 مدرعة، وكميات كبيرة من الأسلحة المتوسطة والكبيرة والخفيفة. جميعها صالحة للاستعمال. أما خسائرنا فـ605 شهداء وعطب 81 دبابة و 10 3 ناقلات».

بعد مرور سنة أخرى اعتزلنا مجبرين. المدرسة أغلقت أبوابها للمحترفين والهواة، فكانت الفرقة هي آخر دورة جادة تخرجت على أطراف أصابعها، والحرب ما تزال تدق طبولها. قالت المدام وهي تدخن سيكارة يائسة عند مغادرتنا من بوابة المدرسة:

– نشبه مجموعة من قنادس سود. نقرض أحلام بعضنا لنبني لأنفسنا أعشاشاً على مياه، كانت في الأصل راكدة.

سمعنا أن فاروق أصبح طباخاً لإحدى فصائل المشاة التي تتدرب في مدينة الحلّة. أحمد استخدم التكسي في نقل المقاتلين ما بين الجبهة والأهالي في بغداد، بعد أن أرجأ موضوع زواجه من صديقته السمينة لحين انتهاء الحرب. عندئذ نصحتني المدام أن أقدم أوراقي لإحدى الكليات الأهلية الخاصة. بدأت تفتح أبوابها للطلبة الذين لم يحظوا بمقعد في جامعة المستنصرية أو جامعة بغداد لقاء مبالغ، أطلقتَ عليها يا أبي تسمية أجور وقحة. لكنكَ وافقتَ تحت إصرار المدام التي كررت زياراتها لبيتنا، فقلتَ لها:

–يعني في النهاية ستتثقف ابنتي في القطاع الخاص!

أجابتكَ وعيناها أشبه بحالة توسل:

–عمّو، لم يكن لي أب ينصحني فقد ودعني صغيرة. الذنب ذنبي أنها التحقت بالفرقة. لقد كنتُ إنسانة حالمة جلبتُ معي طموحاتي لأحققها من خلال طلبتي. كم كنتُ مخطئة، فيبدو أن الحر والحرب لن ينتهيا. أشعر أنني مسؤولة عن توقفها في منتصف الدرب، فهي لم تعد راقصة، ولن تكون مختصة في أي مجال إذا لم تلتحق الآن بإحدى الكليات. أرجوك لا أريد أن أرى سيناريو حياتي يتكرر مرتين.

جلستَ على الكرسي تتوسطنا، ثم تنهدتَ قليلاً، قائلاً:

–كنتُ معارضاً لفكرة المدرسة في الأصل لولا إصرار أمها. لكن حدث ما حدث وأعتقد أنني يجب أن أشكر الله لأنني لا أنتظر عودة ابن من ساحة الدماء. له فيها حكمة.

قلتَ ذلك كأنك تغفر لنا حُلمنا.

اخترتُ أن أدرس أدب اللغة الانكليزية في كلية التراث الأهلية. ملل لا يطاق في صالات المحاضرات. قلق الجبهة يلعب لعبة الكراسي مع الطلبة. قضيتُ فيها سنتين قبل أن تضطرب صحتكَ يا أبي فجأة عند مفترق طريق بغداد–الزعفرانية. عدتُ ذلك النهار من الكلية، لأجد أمي في صمت رهيب. السائق يبكي، المدام تنتظرني، زوجة المرحوم أبو نضال وخادمتها هيلة أم العبد تهيّئان القهوة للمصدومين. سكتَ قلبُكَ.

كيف يقرر السكوت المفاجئ دون سابق إنذار! ألا تعلم أنني لا أُحب هذا النوع من المفاجآت؟ لماذا لم تهيّئني منذ الأمس مثلاً؟! وجهكَ المستلقي في الكفن الأبيض يُسَرّب رائحة كاراميل لم تنتبه إليها أمي الغارقة في سحابة دخانها. نعم، لا أحب المفاجآت. لكن كيف كنتُ سأهيئ نفسي؟! كيف تهيئ الفتاة نفسها للحظة كهذه... أنا في حضنكَ الآن. اليوم جمعة. تهمس في أذني أن أكفّ عن الحركة والضجيج. تحاول جاهداً أن تجعلني أستمع إلى آيات القرآن المنبعثة من التلفزيون. تعلمني الإنصات في أول درس لي في احترام الآيات الهادئة التي تلف جلستك، فتضبطني في حضنك الساكن بذراعيك الطويلتين.

لكن، ماذا يحدث الآن؟! كل شيء توقف. ساعة أمي لم تعد تتكتك في أذني. سنوات الرقص استقالت في الحذاءين المنهوكَين من حرير وردي منتوف علقتهما للذكرى فوق فراشي. خدّوجة راحت. ابق أنت! أحدهم يذكر المغاسل من خلفي. لا أعلم كم أعطوني وقتاً لتأملك، ثم تجرني يد لأبتعد. لامستُ وجهكَ البارد المسترخي قبل أن يذهبوا بك إلى المغاسل. كل شيء حولي يتحوّل إلى جثة.

جررتُ قدميَّ بعدها لأنهي سنتين أُخريين. أُقلّب سيناريو رحيلكَ كلما أقف أمام المرآة أبحث عن الجديلة. تعاطفي مع المدام تحول إلى صداقة مبطنّة بحس شفقة غريب. لا أريد أن أزعج أمي. تأخذ حبوبها لتهدأ أكثر، تكاد تتحول إلى سلحفاة في تنقلها بين المقاعد. ما تزال تنتظر بريداً من إنكلترا. أيامي في الكلية أصبحت دواماً أستطيع أن أطلق عليه «كفيان الشر» كما يصف الطلبة حولي حياتهم الجامعية ولكن شر ماذا؟ لا أعلم. ربما كنتُ أفعل ذلك لأجلكَ فقط. لم أجد صعوبة في التخلص من دَين السنة الدراسية دون أدنى تركيز.

أخيراً، تم حل مشروعك بشكل قانوني ونهائي. قضيت فترات متقطعة ما بين المحامي والمحاسب، أوقّع الأوراق والوثائق نيابة عن أمي. بعد ذلك، جاء يوم حرك كل ما تركتَه. نماذج، علب، صناديق، حاويات، مطيبات، ألوان، أصباغ، نكهات، خلطات مختبرية. بمساعدة الفلاح قمنا بجمعها وتكديسها في وسط الحديقة. أشعل النار فيها على مضض. طقطقت الأبخرة الملونة وتمازجت في سحابات تزاحمت تحت أوراق أشجار البرتقال. ابتعدت أمي عنها ترقبها من خلف زجاج نافذة المطبخ. مكثَت في الداخل تسرح بنظرات مُهَدَّأة اخترقت الدخان البنفسجي ثم تضببت معه.

طقوس الدفن. صلاة الميت. ختمة القرآن. بدأت أدخل زمناً، لشدة كآبته، أكاد أمسكُ هواء ثقيلاً في قبضة يدي.

موسيقى جان ميشيل جار من السماعات الكبيرة المثبتة في زوايا القاعة، تقطر النوتات علينا من ثقوبها كحبات ماء دون بلل. تقول:

– تذكروا أنه لا شيء يُعطى لكم عبثاً.

ثم تضيف بعد برهة:

– لا في هذه القاعة ولا خارجها.

ثم تستدير نحو فاروق الذي ظن أنها غائبة عنه، فأعطى «هزّة كتف» سريعة لأخت سارة الأكبر بعشر دقائق. قالت:

– فاروق، أرجوك تخلَّ عن خلفيتك في فرقة الرقص الشعبي، أنت في الباليه الآن.

لائحة التسعيرات الحكومية تتبدل كل يوم مع المذيعات في التلفزيون. أكثر المذيعين في سن الخدمة العسكرية ما عدا قارئ البيانات الأشيب، يتكلم مؤخراً عن خطط للتقشف الاقتصادي. لافتات القماش الأسود تعلو على أسيجة البيوت والجوامع تنعى الشهداء بخط أبيض: نُصبت الخيام في وسط الشوارع، تقام الفواتح فيها، بعد أن يُسد الشارع من جانبيه لمدة ثلاثة أيام. إطلاقات مسدس خاص هنا. هلهولة أم الشهيد هناك. تنذر زوجة الفقيد أنها لن تقص شعر ابنها حتى يعود المقاتل بسلام من الأرض الحرام. الجيش الشعبي يتجول عند حلول الأمسيات، الجنود يؤكدون لنا أن الحياة المدنية لم تعد كما كانت. حذرونا من الجلوس بقرب النوافذ أو النوم في الطابق العلوي. لا يُنصح بكثرة الشموع للإضاءة، أو الصعود إلى السطح، أو الخروج إلى الحديقة بسيكارة مشتعلة أثناء غارة جوية حتى لو كان الأمر تدريباً عسكرياً.

خشونة فاروق المتداخلة بسمرته المالحة، تأتي لي، دون استئذان، بطيف ترابي، تسبح ظلاله نحوي من درب بعيد لأهالي بيوت الطين. حدثني في الاستراحة عن عشيرته التي تقطن الأراضي الزراعية قرب جسر ديالي. خاله كان يعمل في حانوت المدرسة الفلكلورية للرقص الشعبي انتهت به إلى هذه الصالة. أدركت في سري نوع الصداقة التي تنتظرنا. يعود إلينا صوت المدام:

– يا صغاري، لا تركزوا أمام المرآة على طرف واحد فقط من أطرافكم وتنسوا بقية الجسد يهيم بمفرده ببلاهة، بل احتضنوا الجسد الواقف أمامكم. أطّروه، وصححوا أخطاءه نسبة إلى القدمين والجذع فهي مركز الثقل. يجب أن تميزوا بين الساق العاملة والساق الساكنة. أطلقوا العنان للمفاصل فهي مفاتيح الجمالية التي نسعى إلى تحقيقها. إنها تزاوج ميكانيكية المادة، أي نحن، وشفافية الروح، الموسيقى. أما الأكتاف فعليها سيستقر الحمام. إنها كونتشيرتو التزامن والتوافق والانسجام التام بين الصوت والحركة. لا تنسوا أنّ التاج لكل هذه المعطيات، التعبير. لننته من سيرة بحيرة القطط وخطوات الصعاليك. هيا أروني قليلاً من الحس، ما بكم؟ فحتى الدلافين تعبر عن نفسها!

من الحدود الشرقية تصلنا أخبار المعارك. احتدَّ القتال في الخطوط الأمامية، لنتأقلم نحن مع تبعاتها في الخطوط الخلفية. أغلب النساء يرتدين الأسود. أصبح التعارف الاجتماعي قائماً على أن هذه أخت الشهيد فلان، تلك أم الشهيد فلان أو خطيبة المفقود فلان، هذه الطفلة ابنة الأسير فلان. ثم بدأ غلق ملفات الطلبة الدارسين في الخارج، وتوقفت البعثات والحوالات المصرفية فعاد الكثير منهم ليلتحقوا بمواقعهم في الجبهة. ازداد عدد الباصات التي تحمل جثث الشهداء العائدين إلى دور أهلهم. جولة حزينة في باص صغير يحمل أُمّاً محتضنة قبعة عسكرية، تُوَلول من الشباك الخلفي، عند موقف الإشارات الضوئية، تصر على أنه يوم زفاف ابنها الراحل. ألفنا الموت وقصصه. التلفزيون يجتر خسائر العدو وخسائرنا.

لازمنا صالة الرقص لمدة ثلاث سنوات. لم ترض خلالها المدام عنا رغم محاولاتنا لتحسين أدائنا حسب نصائحها بالتدريب، والترشيق، ووضع «العيب» خلف ظهرنا. تريد منا المستحيل. أطراف أصابعنا لم تعد تتحمل. جرّتنا معها إلى عالم شعرنا أنه بدأ يذوب في الحر الخانق. كلنا في انتظار أن تنتهي الحرب، كأن ما أسمته العرض الأخير مقرون بيوم الفرج هذا. تشير دون تردد إلى قصورنا المتعمد في حقها. مسألة الرقص أصبحت دَيناً شخصياً لها. أحياناً تنفجر فينا بدون مقدمات:

– أنتم تريدون التصفيق أليس كذلك؟ هل وقعتم في فخ صيد الشهرة؟ أيها المبتدئون، ألم أقل لكم إن المقاعد خلف الستارة ستمتلئ بكلاب بحر ستصفق من كل جانب. أعدكم بذلك، لكن لا أعدكم باجتيازكم محنة الفن. يجب أن نعمل أكثر وأكثر.

دخلت مزاجها الانتحاري. ترينا قصاصة جريدة وصفتنا باستهزاء أننا فرقة إنقاذ. صبت غضبها علينا قائلة:

– لا أحد يعترف بنا وهذه مسؤوليتنا. ما أسهل أن نتحول بسبب خطأ مطبعي بسيط من «فرقة باليه» إلى «خرقة باليةٍ».

عندها اعترض فاروق قائلاً:

– يا مدام، الذنب ليس ذنب أحد. نحن نبذل جهدنا طلباً لرضاك، ومحاولة لتفهم الدرب التي وضعونا عليها منذ الطفولة. ربما جَنوا علينا بتعريضنا لعالم جعلنا نخشى ما يطلقون عليه الحياة العملية الطبيعية. نحن لا نعرف غير الرقص وهذه اللغة لا تُجدي في الحرب. ربما كنا مخطئين بتمسكنا بما تسمينه الحلم. ربما آن الأوان أن نفك الارتباط هذا إن كان سيدمر لنا أعصابنا على هذا النحو. على كل حال، الأمل يتضاءل بشأن انتهاء الحرب قريباً. نحن على أبواب تخرّج، فلنكن أحكم من أن نطلب المستحيل.

توقف لحظات عن الكلام يلتقط أنفاسه، كلماته تزاحمه. رفع يديه في الهواء:

–أولاً، أحمد سيتزوج صاحبته. ثانياً، أنا سألتحق بإحدى الوحدات العسكرية وسيذهب تعبنا هدراً. يا مدام، تعلقنا بك رغم زعيقك وأعصابك المتوترة دائماً. نقدر كل ما تفعلينه لأجلنا. لكن بالله عليك، حاولي أن تفهمي رؤيتنا نحن. هل تعتقدين حقاً أنك قادرة على الانتقام من حظك من خلالنا! لماذا تسخريننا كالدمى لتثبتي أن دراستك عند الروس لم تذهب سدى! على الأقل رأيتِ قدراً قليلاً من العالم الحقيقي. ماذا عنا نحن المساكين؟! من تدريب العضلات إلى تدريب الطلقات.

انفجر فاروق في وجهها محمراً بانفعال، ثم اعتذر ليغادر الغرفة. وقبل أن يركل الباب بقدمه، استدار نحوها قائلاً بكل غضب:

–وبصراحة تامة... ليس التصفيق «البرجوازي» الذي تسمعه أذناك فقط هو الذي يجذبني إلى هذه الفرقة، لكن هذا الراتب الحقير الذي أُهلك عضلاتي لأجله كي أُطعم أخي الصغير.

لم نسمع بعد ضجته إلا أصوات أنفاسنا. كان الجميع يواجه ضبابية الأيام القادمة. أخبار الجبهة غير واضحة. بدأ استدعاء مواليد جديدة والجيش الشعبي للقتال. جلست المدام على مقعد قريب. راحت تدخن سيكارة متوترة قائلة بصوت يائس:

– يا إلهي، أطفالي ينضجون أسرع من نضوج عضلاتهم. هذا لن يُجدي. بجالستا متى ينتهي هذا الكابوس؟!

كلما قالت بجالستا بتلك النبرة العميقة يُهيّأ لي أنها تنادي ملاكها الحارس.

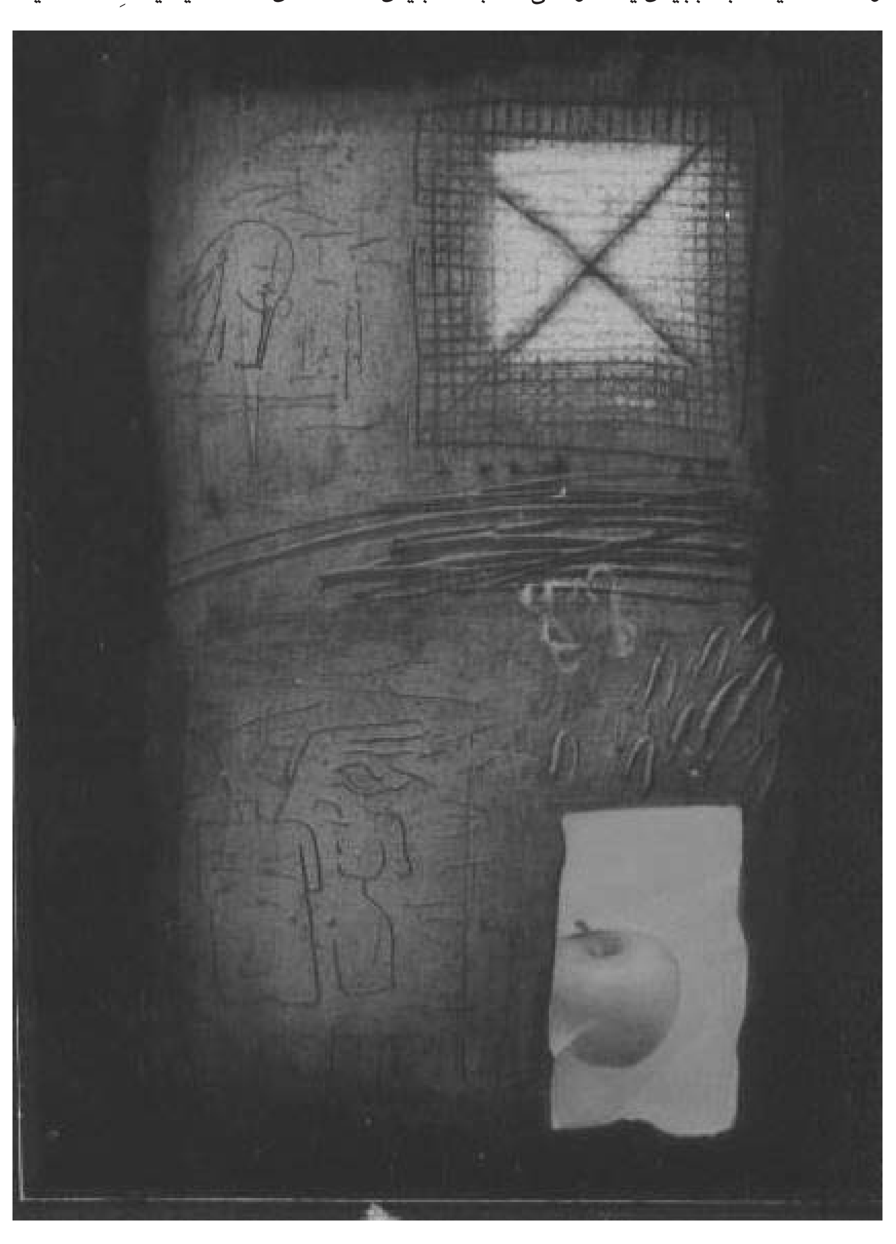
ألفنا صوت صافرة الإنذار. بدأ الأطفال في الشوارع يقلدونها بدقة، أحياناً لا نميز بين لعبتهم وبين الصافرة الحقيقية. عندما حلَّت شحة البنزين، صدر قرار تحديد تجوّل السيارات بحسب أرقامها الفردية أو الزوجية. يوم للفردي ويوم للزوجي. ثم نزلت قسيمة توزيع حصص الغاز. قلّت شهرة شخصية أبي الغاز المدنية الذي كان يتجول بين البيوت بعربته يسحبها جرّار بزموره اللعين. كثرت سيارات «فولكس واغن»– تجميع البرازيل–في المدينة، حتى اكتسبت اسم الكلاب السائبة، تبحث عن الغاز والبنزين في المحطات. عند مخارج الطرق العامة، يقف بعضهم في يده علبة صبغ وفرشاة، يطلي أضواء السيارات المارة لتخف حدتها أثناء أيام التعتيم. الحياة تنطفئ عند حلول الظلام. أتسلل خلسة إلى السطح العالي. أقضي لحظات مسروقة أرقب شُعلة مصفى «نفط الدورة» من بعيد.

لم نحظ تحت القصف إلا برقصات مُجترّة كررناها في المسرح الوطني، وصالة السينما والمسرح، ومسرح سينما المنصور في ساحة الاحتفالات. مللنا رقصة أحمد للسندباد البحري، فاروق في دور الإمبراطور في مقطع لسور الصين، سارة أخذت دور الزمّردة، أنا كنت الماسة، أما التوأم فظهرا كفصّي فيروز في رقصة سلّة المجوهرات، نختمها عادة بفالس لـ«شتراوس». بقيت لنا محاولة أخيرة قبل التخرج. مهرجان بابل. عاد التحدي إلى عيني المدام. تتكلم على رقصة حديثة تبدأ ببيض يتكسر على خشبة المسرح، ليخرج منا أول نماذج الخليقة. كانت ستُخرِج آدم من ضلع حواء على نغمات كلاسيكية تتداخل مع إيقاع جاز حزين. رحنا نتدرب كل يوم. تكلمنا بألق عن فرصتنا في الظهور أمام الفرق الأجنبية. بعد ذلك قررت أن نقدم رقصة أطلقت عليها جنازة فنان، مؤكدة لنا أنها قصة حياتها وأنها ستعتزل بعد ذلك مباشرة قائلة: «على كل حال، قال لي عراف هندي مرة إنني سأموت في سن الخامسة والثلاثين».

كانت فترة مجنونة، تلك التي دربتنا فيها على خطوات وحركات صحوة الموت، كأنها تحتضر في كل مرة كانت تعيد المقطع أمامنا. تتلولب حول نفسها، بأجمل حالاتها، كأنها ستثقب خشبة المسرح تحت قدميها. قامت بتكثيف كل ما تعلمناه لنقدمه نيابة عنها. في ظرف عدة دقائق سنسقط كالذباب أمام الحضور الأجانب الذين وصفتهم: «قطيع من بطاريق، ترتدي ملابس السهرة السود، ستأتي لانتقادنا. لا تدعوا منظرهم المتحضر يعبث بأرجلكم على المسرح». سارة ارتجفت كورقة خريف مع النوتة الأولى. وفاروق يعاني من مغص مفاجئ أثناء الاستراحات.

رغم نجاح الأداء، ما بين تناقض حداثة رقصة الخليقة، وكلاسيكية جنازة فنان، وأسطورة عشتار، ورهبة التعبير عن أنفسنا لأول مرة في مهرجان بابل، أمام العيون الفضولية مُوزَّعة بين طبقات المدرج الحجري. شعرنا في النهاية أن رحلتنا مع عذابات هذه المخلوقة، لن تأخذنا إلى أبعد من موقف آخر محطة نزلنا فيها، لنقدم عرضاً متكاملاً كهذا، تركناه فيما بعد في حرّ آب خلفنا بين الآثار.

بيان: «حشد من الصناديد يُحدِث تصعيداً





قطعة ورق مكتوب عليها «دراسات»، بجانبها يد تفيض حناناً.

تمثال اسمه روتين. إنسان يحاول الخروج من هرم بأبعاده الجانبية الثلاثة مجسمة ملساء، يرتديه كفستان ويحمله كثقل. هرم مصقول تنبع من جانبه ذراعان ومن قاعدته السفلى قدمان. الرأس ينبع من الحافة العليا للجانب الثالث من الهرم. قدماه منغرستان في قاعدة جبس، كأنه يغوص فيها بسبب حمولته. إحدى الزوايا تعطي انطباع عدم استقراره في وقفته. الزاوية الثانية تعطي انطباعاً أنه يتمايل بتراقص يملك سيطرة تامة على الموقف. الزاوية الثانية تعطي انطباعاً أنه يتمايل بتراقص يملك سيطرة تامة على الموقف. جهة الظهر تبين معاناة تقييد يديه في قالب الهرم المُجسَّم، يحاول جاهداً التخلص من حالته. الأركان الثلاثة تتكرر في استوائها. الخطوط المستقيمة حادة ومملة، أما تعبيرات الوجه فلا تتغير مهما تغيرت زاوية المنظور. بقربه نسر بُنّي يحتوي بين جناحيه وجه العذراء، خلفه مجموعة من رؤوس خيل حداثته تجعلها أشبه بمطارق منتصبة. إحدى القطع عبارة عن خوذة كبيرة على شكل مهد لطفل دون ملامح، تهزّه يد مبقعة بسوادات خفيفة. حمامتان من نحاس مطروق مغروستان في الجدار من جناحيهما بدبوس صدئ. تخطيط لشجرة متيبسة ذات مقاييس مرتبكة مذيّلة بكتابات يابانية.

التحليلات العسكرية تطوف بين القطع الفنية: «موج من الرجال يتدفق على الجبهة إلى ما لا نهاية. تتصدى قواتنا للهجوم، وتمنع العدو من تحقيق أحلامه في الوصول إلى الحدود محاولاً إحداث خرق في الجبهة على مساحة صغيرة، بعد أن حشد لها جهوداً غير اعتيادية. ما زالت قطاعاتنا في هذا القاطع الضيق– مضيق الشيب– والذي يبلغ طوله أحد عشر كيلومتراً صامدة».

سجادة شعبية ملونة يرقد عليها نموذج تقليد مصغّر لأحد تماثيل «آنجلو». وجه رجل بدين أصلع محتقن بخدين منتفخين وفمه ممدود إلى الأمام. ينفخ من بين شفتيه على شكل حلقة رافعاً حاجبيه إلى أقصى حد، كانت ربما يوماً ما رأساً لنافورة ماء في أحد القصور الإيطالية. على قاعدة أخرى، تمثال خشبي أملَس بعضه امرأة وبعضه رجل، جالس في حيرة من أمره دون هوية. حوض زجاجي ترقد فيه صراصر متيبسة. كتل رفيعة طويلة دون عنوان، كأنها سيقان لنبات من إيحاء «جياكوميتي»، تومئ إلى كتل متينة سميكة تصطف خلف بعضها مثل فيلق عسكري بأمرٍ من «مور». لعب مطرزة على شكل سمكة أو زهرة، يتفنن بصناعتها جنود المعسكرات أثناء الخفارات. رسم بالفحم لـ«أم العباءة» تغسل قدمها في مياه نهر ساكن، فمها ينفتح إلى الجانب كأن يداً خفيَّة تسرق منها ضحكتها. أفعى تنسلخ عن جلدة خاكية. صورة لصبية جميلة ذات ساقين مشعرتين بالأسود والأبيض، وأخرى فوتوغرافية لزجاجة هائلة تأكلها فطورٌ مثل بيوت عناكب تشردت.

طقطقَت ستارة القصب، دخل باحثاً عن منفضة سكائر. ابتسم قائلاً:

– ليس معرضاً كما ترين، إنه معملي المهجور.

ثم انحنى بتحية هندية مضحكة، مضيفاً:

– أقدم لك يا آنستي، حَنَفي المتقاعد.

كان كثير الحركة أقرب إلى اضطراب.

– بالعكس، المنحوتات تعبّر عما يدور في الخارج.

– نعم، والخارج يقتل الداخل، فالذي ترينه يحتفل بجلوسه على هذه الرفوف عدة سنوات. أتدخنين؟

– لا، شكراً. شارباك أشقران أم أنه النيكوتين؟!

قال ضاحكاً:

– أنا أشقر من رأسي إلى قدمي.

ثم أضاف:

– أحسدك حقيقة، فكم حاولت أن أترك هذه العادة، خاصة عندما تركت الأستوديو.

– أتقصد أنك لم تعد تنحت؟

لم يجب. استمرت حركته بحثاً عن المنفضة.

– لماذا لا تجرب مضغ علكة بدلاً من الدخان؟

ابتسم:

– كيف سيكون منظري والعلكة تتراقص بين فكيّ وأنا داخل بوابة المعسكر، تخيلي، هها!

أضاف:

– نوشك على أن ننهي قنينة النبيذ الثانية، ألا تشاركيننا؟ المدام تترجم لنا شعراً تصف فيه الطيور التي قصّ أحد أجنحتها فاضطرت للتعاون فيما بينها على الطيران. امتلأ الأفق بأزواج من طيور يحتضن بعضها بعضاً من جانب، ومن الجانب الآخر يرفّ كل طير بجناحه فتتعاون على التحليق. «أبولينير» على ما أعتقد.

بدأ بالتدخين. لا يستقر في بقعة واحدة، يعيد النظر في منحوتاته كأنه يراها لأول مرة.

– هل تعتقدين أن البشر يمكن أن يتعاونوا فيما بينهم بقدر أكبر لو اقتُطع من كل فرد يد أو ذراع؟!

– أليس هذا ما يحدث بشكل أو بآخر.

– إذن، أيمكن أن نتخيل أن يوم السلام يكون أقرب؟ هممم.

غاص في سحابة صمت. رغم صمته فكل شيء فيه يتحرك. عينان عسليتان لم أستطع أن أقرر إن كانتا عينين جذابتين، بسبب ذلك الجفن الثقيل، لكنهما كانتا بالتأكيد حادتين وعميقتين. يداه متورمتان. ساقه لا تكفّ عن الاهتزاز.

تتدخل أخبار هذا الشهر بين لحظات تعارفنا، تدور حول معركة الخفاجية الرابعة، ومنطقة الأحواز، وغرب الكارون. أعلن الناطق العسكري تصريحاً في ختام المعركة: «قامت بعض قطعاتنا خلال الأيام الماضية في منطقة الخفاجية، بإعادة تنظيم مواقعها في المنطقة التي سبق أن كانت فيها منذ بداية الحرب، لأسباب دعتها الضرورات العسكرية في حينها. تم هذا الإجراء لأسباب عسكرية تخص أمن القطعات وترصين مواضع قطعاتنا على طول الجبهة. لم يرافق هذه العملية أي تدخل من جانب العدو».

قاطعت شروده:

– أعمالك متنوعة ومعبّرة، هل بدأت الفن مبكراً؟

– ليس بالضرورة أن يكون التعارف رسمياً إلى هذا الحد. صحيح أنا لن أدعوك للرقص حالاً لكن، يا صغيرتي، إن كنت تسمحين لي بهذه التسمية.

قبل أن أومئ بموافقة، أو بابتسامة، استرسل في حديثه كأنه لم يسمع سؤالي:

– صغيرتي، أنت جديدة على مجموعتنا. دعيني أنا أسألك، أتعتقدين أن هناك فرقاً بين من يفهم الحياة، وبين من يحس بها؟

انتظرتُ تعقيبه الذي لم ينتظر ردة فعلي:

– أليس الموضوع أشبه بمن يحاول تحليل قطعة فنية، وهو مشدود إليها فترة طويلة يحاول اختراقها، ليفهمها؟ بينما هناك من يجلس على كرسي مريح، يتأملها من بعيد مسترخياً، لتذوقها؟ لأجل التذوق فقط، دون التفكير في حجمها، وزنها، مقاييسها، أخطاء قبحها، كثافتها، والسبب الذي عُملت من أجله و و و و؟

– أتسأل كل هذه الأسئلة في حالاتك الاعتيادية أم هو النبيذ؟

ضحك عالياً:

– آه النبيذ، لا تدينيني منذ اللقاء الأول، فأمامنا المزيد من الأسئلة.

أخيراً سحب مقعداً دون مسند ظهر، جلس بجديّة قائلاً:

– أنا ممن يتبعون الحس. لا أفهم الأشياء، لكني أحس بها. أحياناً لا أريد أن أفهم الأشياء، وأكتفي بإحساسي بها. أتعلمين أنني لو ركّزت نظري على شعرة، مجرد شعرة رأس، أمسكها بين أصابعي وأتأملها لفترة، يتهيأ لي أن ثمة فطراً على سطحها إلى درجة أنني أستطيع معها رسمه مجسّماً.

وزّعتُ كلامه بين التماثيل القريبة مني. جذبني ثانية التمثال الخشبي فاقد هوية الرجولة والأنوثة، أو ربما جامع الاثنتين معاً. أتاني صوته متابعاً:

– وأنت؟ من جماعة الحس أم الفهم؟

تأكدت أن الكحول بدأت تتكلم:

– أنا من جماعة مطاردة خيالي تحت تدريب المدام. المشكلة هي أنني بدأت متأخرة، أقرب إلى الهواية، فلم أحترف شيئاً في الفن، ولم أتعلم مهنة أبي قبل فوات الأوان. أجدني نموذجاً لمفترق خيالات ليس إلا.

– على الأقل، عندك خيار الخيال.

وضع المنفضة في حضنه. أشعل سيكارة جديدة:

– أرجوك استمري، يبدو أن نادينا يتوسع.

– الاستمرار في ماذا؟ الموضوع هو هل نستطيع أن نبدأ ثانية من نقطة الصفر، غاضين البصر عن مطحنة استهلكت سبع سنوات من وقت تحليقنا؟ هل تستطيع ترطيب الطين ثانية وتعيد الكرة من البداية؟!

صفق لي بحدّ:

– آها، تدخلين دوامة الأسئلة. لا أعتقد أنني ثمل لهذه الدرجة، فأنا أرى بياض أسنانك من هنا.

شعرت برغبة في أن أدعه يدرس بياض أسناني عن قرب، لكني مكثت في مكاني قائلة:

– أؤكد لك أنها طبيعية. ليست من البورسلين!

ضحكة شيطانية صدرت مع التماعة عينيه:

– أحب خيط الخبث النسائي.

ثم أضاف:

– الذي لا يؤذي.

سألته:

– لماذا النحت بالذات؟

شرد مرة أخرى للحظات كأنه شاركني ما يصرّح به الناطق العسكري في رأسي: «في الساعات الأولى من صباح هذا اليوم، قام العدو بتعرض واسع النطاق على قطعاتنا في الخفاجية. تمكنت قوات سعد من استيعاب هذا التعرض وتحديده بتمزيقه وتدمير كافة أفراده بمرحلتين. في المرحلة الأولى تم تدمير كافة قطعات العدو من الجسر الأول إلى الجسر الرابع. انتهت العملية في الساعة 11.00 أما المرحلة الثانية والأخيرة، فقد انتهت في ساعة 15.30 حيث تم تدمير كافة قطعاته المتبقية على الجسر الخامس».

انتهى التصريح. أجاب عن سؤالي بما هو أقرب إلى السخرية:

– لأن خالتي أهدتني كتاباً في عيد الميلاد عنوانه «مابو». يحكي قصة طفل إفريقي أسود يعمل مع والده في تجارة الموز. كنت في السادسة من عمري. عندما سألتها لماذا مامبو أسود وأنا أبيض؟! أجابتني لأن الخالق كان يصنعها من عجينة من ماء وطحين أبيض، ثم يصبنا في قوالب مختلفة مثل قوالب الحلوى. بعد ذلك يضعنا في فرن هائل لطبخنا. عندما تنضج أجسادنا باكتمال عملية الطبخ، يُخرجنا من القوالب، ويدهننا بملمع لبشرتنا، ثم يرسلنا للحياة. أما مامبو وأمثاله، فقد نسيهم الخالق سهواً لدقائق عدة أخرى في الفرن، فاحترقت بشرتهم وأصبحت مثل السكوت. ماتت خالتي تاركة معي قضية «مامبو» حتى قررت أن أطبخ بدوري آدميين من ماء وطحين. انتهيت في قسم السيراميك ثم تخصصت في النحت.

توقف برهة ليسترد نفَسه المضبب:

– أما الآن، فكل ما أتذكره في طريقي كل يوم إلى المعسكر، هو أنني كنت يوماً ما نحاتاً. عندما، أقصد فيما لو، تتكرر فرصة العمل ثانية، سأكون قد فقدت قابليتي. بالتأكيد.

رنّت كلمة «بالتأكيد» كالصدى. أشعل سيكارة أخرى:

– أتعلمين أنني أنحت الآن تحت القصف؟ أنحت مناضد عسكرية رملية وجبسية ومن قطع الكرتون. الفرق الوحيد هو أنني لا أعلم ماذا أنحت. ليس لي حق السؤال عن المواقع المطلوب تأشيرها. يجب أن أنقل الخارطة المقدمة لي لأنفذها في أسرع وقت ممكن. دون نقاش.

لمعت سلسلة مذهبة حول رقبته. عندما اقتربت منه، تبينت صليباً صغيراً يتدلى من فتحة القميص. تنبه لاقترابي ولما جذب انتباهي فرفعه بين إصبعين مبتسماً: «هذا لإبعاد مصاصي الدماء». ضحكنا ضحكاً أقرب إلى المجاملة. قبل التحاقنا بالآخرين قال بهدوء:

– سأراكِ.

بعد قليل، أضاف:

– دون المدام هذه المرة.

ثم ختم جملته:

– لا بد أن نلتقي.

استجدت أخبار الجبهة. تجاوزات قطاعات عسكرية على الحدود. تحركات جديدة. مناورات. استرجاع أراض. فتح نيران هاونات ومدفعية على المخافر الحدودية. البيانات العسكرية المذاعة أرقامها تصاعدية بسرعة غريبة. الأهالي يؤكدون أنها حركة تجاه النهاية. تحركات بواخر وتعليمات لسلطات الموانئ. حدوث حالات جنوح وتصادم. عمليات تسلل وعمليات تخريب. بروتوكولات ورسائل وزارية وحقوق مشروعة واتفاقيات. معاهدات مؤرخة ومحاضر مشتركة. اختراق طائرات عسكرية الأجواء. اجتياز زوارق خطوطاً في شط العرب. قصف مصفى النفط واكتشاف حقول ألغام جديدة. دخل الشباب دوامة أخرى من التحاق بالمعسكرات والوحدات تلبية لنداء الوطن. ازدادت فعاليات انقطاع الكهرباء والماء والاتصالات، في سيناريو مكثف هذه المرة.

الفصل الخامس

الحرب تَجرّ خطى ثقيلة منذ إعلان البيان العسكري رقم واحد. قلّت أعمار المطلوبين للتجنيد الإجباري، ازدادت الدعوات للتطوع الإنساني، تنوعت قرارات منع السفر. اختفت المجلات الأجنبية من رفوف المكتبات. البضاعة المستوردة استُبدلت بها المحلية. امتنعت الصيدليات عن بيع حبوب منع الحمل في حملة مكثفة لزيادة النسل تعويضاً عن الخسائر في الأرواح. غزت التلفزيون إعلانات التشجيع على الزواج والإنجاب المبكر، في صرعة ما أُطلق عليه «الأعراس الجماعية». تُحجز قاعات كبيرة تجهز بألوان الأطعمة والحلويات، فيتم تزويج الشباب بالجملة. لكل زوج دور في اقتطاع الكعكة البيضاء الهائلة التي تتوسط القاعة بسكين مزينة بشرائط ملوّنة.

المصورون يقومون بتغطية شاملة يتنقلون في احتفال عقد القِران العام كالذباب. الصحف تعلن عن عروض تخفيضات في الفنادق. الرشيد، المنصور–ميليا، عشتار– شيراتون، فلسطين–مريديان، السدير–نوفوتيل. دعايات جزيرة الأعراس تعلن كيف تقضي شهر العسل، ترافقها تخفيضات شركة قوس قزح لتطريز فساتين العرس. إعلانات جانبية لتخفيضات محلات الحلاقة للنساء؛ رموش، وسعاد، وأسمهان، مع لائحة أسعار التسريحات الجديدة. خدمات قارئة الفنجان تتنبأ فيه بأسماء الخريجين الذين سيناسبون الخريجات. الإعانات المادية للزواج المبكر يمكن استلامها من شباك محاسب كلية السياحة في جامعة المستنصرية.

شهدَت جبهات القتال معارك طاحنة في القاطعين الأوسط والجنوبي. تحولت الحرب من حرب سيارة إلى حرب مواقع ثابتة على الأغلب. بدأت تصل إلينا تفاصيل أخبار معركة شرق الكارون وعبادان، ومعركة ديزفول–الشوش، وملحمة الخفاجية الثالثة، مخلّفة آلاف القتلى وكميات كبيرة من الأسلحة في ميادين القتال. راحت حقول الألغام تضيف المزيد من الخسائر البشرية حيث مزقت أجساداً محولة الأرض إلى لهيب. أضرار كبيرة أصابت الجسور الواقعة على نهر الكارون. بدأ حصار المدن في إطار من تضحيات أخذت تحصد الأفواج البشرية بأعداد مذهلة.

آخر ما سمعته عن أعضاء الفرقة أن فاروق جُرح في معركة كيلان غرب، وأحمد اختفى مع أخباره عند اندلاع معركة البسيتين. سارة توظفت في مبنى دار الأزياء الوطنية عند تقاطع شارع ميسلون بشارع الربيعي. عندما توقفت عروض المؤسسة بسبب ظروف التقشف، التحقت بأختها التوأم. الكبرى تعمل خيّاطة، تثبت على الفساتين أزراراً لامعة تستبدل بها أزراراً قديمة انطفأ لونها. الأخت الصغرى بدأت تحترف الغرزة المخفية في قسم ترميم ملابس العرض، حتى إشعار آخر. رَنَّ الهاتف. المدام على الطرف الآخر تتصل من محل قريب في المنطقة. تدعوني لمرافقتها لزيارة أصدقائها، تطلق عليهم ضاحكة «جماعة العهد البائد». بعد قليل، مرت لتأخذني بسيارتها فارتديت ملابسي على عجل. تكلمني عن فكرة عرض جديد اقتُرح عليها، وفرصتي للقاء بعض «الوجوه الطازجة».

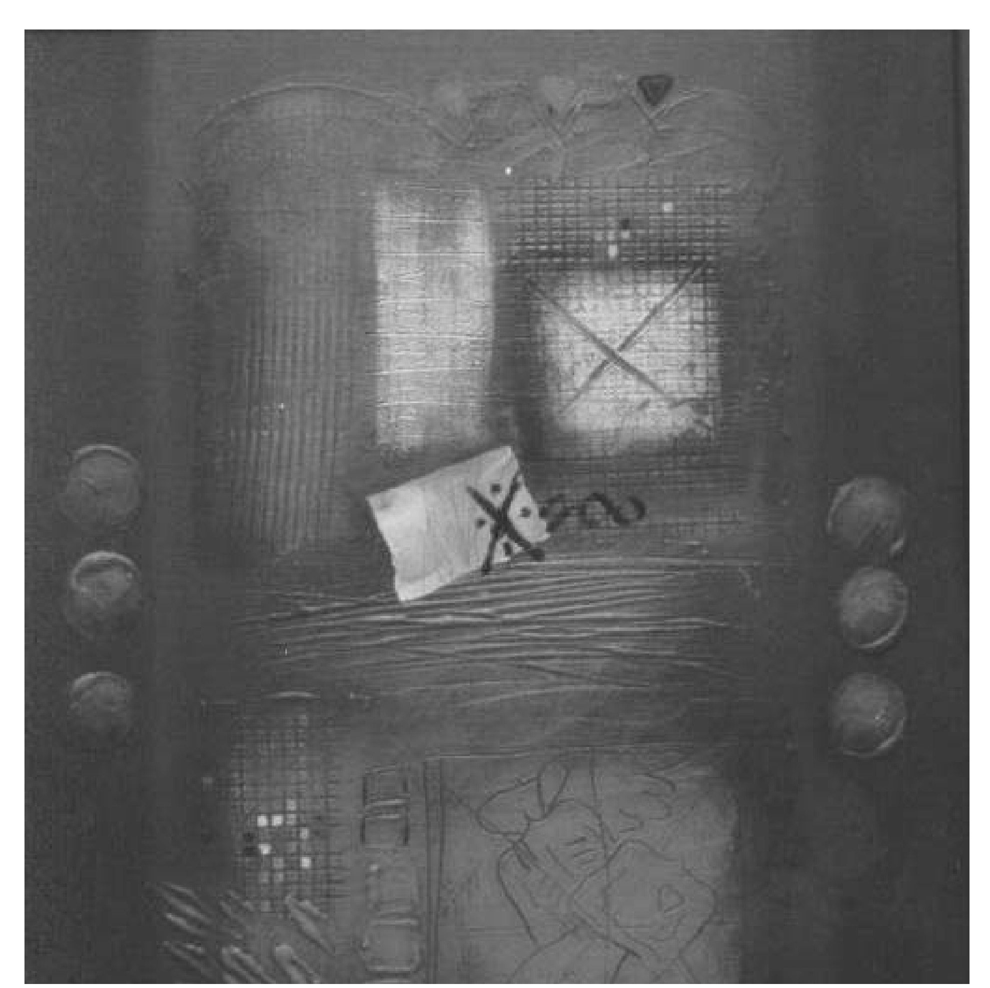
وصلنا إلى شقة الفنان. فتح لنا الباب وجه عريض ينبع منه أنف إغريقي. يتدلى من تحت منخريه الضيقين، شاربان مائلان إلى شقرة تلائم لون العينين اللذين اختفيا تحت جفنين ثقيلين، عندما ابتسم مرحباً. أخذ المدام بين ذراعيه، يرتجف في قدحه سنتمتران من نبيذ أحمر. تم التعارف بعد أن هدأت شهقات الفراق بين الأصدقاء الأربعة. نحات وراقصة ومعمارية ومسرحي ثم أنا. تشكّل رباعي من عضلات مشدودة، كرش بدأ ينمو مع السهرة، خصلة من شيب خلف الأذن، وسيكارة تُشعل من جمرة سيكارة تنتهي. المدخل الصغير يفضي إلى جلسة أرضية حيث تتكدس وسائد بلون الشذر، تتكئ على أخرى بلون الحِنّاء، حول طاولة مربعة واطئة تكفي لِلمّ ستة أشخاص حولها. بدأت أمسية بذكريات غريبة عني، طافت مع الدخان بين ارتعاشات الشموع.

ساعة من أحاديث عامة عن أمل انتهاء الحرب، تذبذب أسعار الأغذية والأدوية، شحّة مواد البناء، اختفاء وسائل استمرارية الفن بإغلاق الغاليريات الخاصة ومعارض الرسم، توقف مسابقات الفن التشكيلي وعروض المسرح، شِحة الورق اللامع للمجلات والورق العادي للكتب والمطبوعات. دخلت المدام في نقاشات طويلة مع صديقها المسرحي، يتبادلان مصطلحات روسية وفرنسية. تقاطعهم المعمارية بضحكة ثملة: «ها! بدأت المسبّة؟». تعليق كلاسيكي ممل لم يلائم جو البساطة الطاغي على الجلسة. أزعجتني بمحاولاتها لعرض طقم أسنانها البورسلين الجديد، كلفته عالية لا بد تحت الظروف الراهنة. عندما انهمك الجميع كل يشكو موضوعه، تسللتُ بهدوء إلى الاستوديو من فتحة التقاء الغرفتين.

أحدثتُ شقاً في الستارة، تطقطق خلفي القصبات المرتعشة. دلفت إلى غرفة متوسطة الحجم والإضاءة، يغفو في جوها بخار من ظلمة مميزة، تنير الهياكل المركونة احتراقات المزيد من الشموع. المنحوتات موَزّعة بعبثية بين رفوف من حديد مثبتة على الجدار الأيسر. قواعد خشبية مختلفة الارتفاعات والأحجام مثبتة في الأرض على اليمين، توازي حافة منضدة عمل خشبية كبيرة تتوسط الغرفة. علبة مفتوحة من شموع بيض طويلة لمحتها على الطرف القريب من الستارة. تناولت واحدة، وسرقت لها لهباً من شمعة أخرى تحتضر. بدأت أتنقل بين أعمال صاحب الدار، بعد أن ألقيت نظرة سريعة من باب جانبي، يُفضي إلى غرفة نوم صغيرة تحتوي سريراً من الطراز الحديث ومكتبةً عملَ يدٍ وسقفاً من مرايا نقية.

أفكر في أحداث الأمس. معارك ديزفول– الشوش. حشد العدو أعداداً كبيرة من الجنود والمعدات، بلغت 15 فرقة عسكرية، عدا قوات من حرس الثورة والمتطوعين. اشتركت مع هذه القوة، الفرقة المدرعة الذهبية، التي سبق أن شاركت في معركة شرق الكارون. ثم أعيد تنظيمها وأكملَت نواقصها بمساعدة من خبراء حرب المنطقة، فشكلت أكثر من 12 لواءً من مختلف الصنوف، تساندها قوات من المدفعية الثقيلة مؤلفة من 45 كتيبة من مختلف العليارات، مع 700 دبابة ومجموع القوة 15000 رجل. جرت المعارك على جبهة طولها 150 كيلومتراً واستمرت عدة أيام. لم أعد أتذكر أرقام الخسائر.

القطعة الأولى كانت لوليد حديث بالحجم الطبيعي. يمتد من بطنه حبل سري، يربطه بمشيمة منحوتة على شكل خوذة حرب. القطعة الثانية كانت لأم ترضع طفلها. بدلاً من تكورات نهديها الأملسين، توجد خوذتان خاكيتان بمثابة الصدر المرضع. الهيكل الثالث لبروفيل مصلٍ على سجادته يُسَلّم في يأس. على طرف المنضدة البعيد مجموعةً من منحوتات أصغر حجماً لحمار في بدلة سهرة، جرذ يضرب بالسوط، خنزيرة ترضع رجلاً، قطة تضاجع كلباً. يتدلى من الجدار رأس غزال بعينين ناقمتين، وقناع أفريقي من خشب غامق مزيّن بقش مصفرّ، كأنهما ينظران إلى رف الحديد، حيث تزحفٌ أيد مصنَّعة من جبس أبيض، بعضها مغطى بتراب السكون. يدان تتصافحان. يد متمردة وأخرى مسترخية. يد ترفع شارة النصر، أخرى تنزف، الثالثة تتسول. يد تتضرع. يد على شكل قبضة غامضة. يد تفكر، أخرى تلعب. يد تعبت من الانتظار.



أضاف بسخرية:
–فأنا نتاج محاولات والديّ في الإنجاب لمدة خمس عشرة سنة، حتى أقنعوا والدتي أن العذراء تجيب دعوة المحرومات في دير «مَتّي». ها هي قد عادت إلى الدير تبتهل لأن يعود ابنها الوحيد سالماً.
أضفت:
–أو سليماً.
يضحك قائلاً:
–ما رأيك بقدح شاي؟
لم يغب سوى لحظات، رائحة الشاي دلّت على تحضيره المبكر على نار هادئة. ارتشفنا القليل، تؤطرنا رقعة من صمت، تثقبها بين لحظة وأخرى إطلاقات تائهة من المخفر القريب. لا يفصل بيننا غير وسادة حنيّة. سألته:
–أتعتقد أننا سنكون قد نسينا كل شيء عندما تنتهي الحرب؟
–صغيرتي، أسئلتك تكبرك عمراً.
–وأنت؟كم تكبر أسئلتي؟!
ابتسم بجفنين ثقيلين، ثم استأنف:
–أتقصدين سننسى الحرب بعد انتهائها؟أم عندما تنتهي نكون قد نسينا كل شيء عن أنفسنا؟!
من شباك الشقة العليا، يهبط بيان عسكري عن معارك شرق البصرة. الملاحم الخمس. «ذكرت المصادر العسكرية أن حجم القوات المعادية، التي تم تحشيدها بمواجهة الحدود، في قاطع البصرة كان كبيراً جداً وبشكل لم يسبق له مثيل. فقد شكلت بمجموعاتها 8 فرق عسكرية، وهي من أحسن الفرق العسكرية في الجيش الإيراني التي جرى سحبها من مواقعها على بحر قزوين. كان الهدف اقتحام الحدود، والاستيلاء على البصرة، وعزل المنطقة الجنوبية عن بقية القطر».
يقوم لغلق الشباك. يتأمل حديثنا. يواصل:
– نعم، فبعد أن وصلت الحرب إلى هذه المرحلة، لا يهم متى تنتهي. بالطبع سيتم جرد الخسائر المادية، العسكرية، الاقتصادية، الجغرافية، البشرية. سيتدخل العالم لدراسة الحرب وأهوالها ونتائجها على المنطقة. ستبحث السبل إلى إعادة بنائها وعودة الحياة إلى وضعها الأول. لكن لن يسأل أحد عن نتائج هذه الحرقة الإنسانية للبقاء. فعندما نعيش نحن، مع إمكانية انتهاء شبابنا في أية لحظة بطلقة حديدية عابرة لا يتجاوز طولها السنتمتر، لا بد أننا سننسى حتى شكل الحياة التي كانت ما قبل الحرب.
ثم سأل، كأنه يحدث نفسه:
– كيف سنتذكر ما كُنّا عليه؟كيف نستعيد زمناً من ماضٍ ابتلعته الحروق؟!
بعد قليل يعود للإجابة عن سؤالي:
– بالتأكيد سنكون قد نسينا كل شيء عن أنفسنا عند انتهائها.
أضفت:
– ثم ماذا؟
يداه المتورمتان أخفتا يدي التي استحالت حمامة سمراء بين جناحين غريبين مشدودين. بيدي الطليقة تحسست أعلى الجناح. لم تكن تلك الانتفاخات أوراماً، بل أربطة مشط اليد قد تعضّلت بتشنج واضح، لكثرة الشدّ والتقلص في عملية النحت. أجاب:
– ثم سيأتي زمن يجب أن نخلق منه كينونة جديدة لنتحمل دوامة مدنية أخرى من بقاء يختلف.
سألته:
– ما فائدة هذا النوع من البقاء. ماذا سيبقى لنا؟
– لا شيء غير الخدع التي نكتشفها في دواخلنا.
– وأنت؟
– هذه الحرب جعلتني أفكر لماذا أنحت؟ لم أعد أسأل لماذا نعيش ولماذا نموت. هذا النوع من التساؤلات يرافق سنوات الحرب الأولى فقط. فبعد أن أفقنا من الصدمة، تبلور اليقين بأنها عجلة من نار لا مفر منها. والآن أجدني أبحث عن خدعتي. هل أستطيع أن أفلت بنحتي؟!
كأنني رميت السؤال التالي في وجهه:
– هل ستفلت بنحتك؟
يده تتعرق فوق يدي. ريش الحمامة ينسل. الدقائق تمضي. ليس للوقت حضور. يقبّل يدي بأناقة.
– لا أعلم لماذا أنحت. ألكي أخلق بيدي نماذج حياتية، حتى لو كانت جامدة، لكنها من صنعي أنا؟! ألأنها أشياء تشعرني بأنني أملكها. لأن عيني فقط هي القادرة على رؤيتها عندما يكون الطين كتلة صماء، فأزيح عنها الزوائد لتستحيل امرأة أحلامي مثلاً؟!أهي لعبة خلق، أم تملك، أم هروب؟ أم لعبة أنانية مع الذات ليس إلا؟ كل هذه الأسئلة تزيد الدوامة القادمة تعقيداً؟!
ارتبكت جملته الأخيرة شيئاً ما. لم أضف. التزمت الصمت. عند عتبة باب شقته طبع قبلة هادئة على جبيني ليزيح التوتر الذي بين حاجبي. غادرت، أودع المجهول. أم أستقبله؟!
أخبار المحمرة تفتتح النشرة المسائية: «قضت قواتنا على المفارز الأمامية للعدو التي حاولت التسلل إلى طريق المحمرة–الشلامجة داخل الأراضي الإيرانية. بعد فشل العدو ليلة أمس باقتحام مدينة المحمرة، وتكبّده خسائر فادحة، يحاول الآن التقدم برتلين نحو الحافة الشمالية للمدينة. والثاني من شمال غربي المدينة باتجاه حافاتها الشمالية الغربية. تتصدى قوات المحمرة للعدو ملحقة به خسائر جسيمة، فيما تواصل قوات المنصور والتشكيلات المتجحفلة معها تقدمها من غرب المدينة، لتدمير قوة العدو بالتعاون مع قوات المحمرة. ليلة أمس، تحول ميدان المعركة إلى شعلة متأججة من نيران أضاءت المنطقة المحيطة بساحة الحركات لمسافة بضعة كيلومترات».
انتظار مرتبك ما بين القصف فوق رؤوسنا، لا أحد يعلم متى تنتهي الخسائر وتدهور الأحوال الاقتصادية، وما بين قلق أمي حول إيجاد مشدّات للصدر تلائم حالتها الجديدة ومسكنات أجنبية للألم. كيف سأحتفل بأجواء علاقتي بأول رجل يكبرني بعشر سنوات ولا يوجد وقت للأسئلة؟هل يوجد وقت لعلاقة تحت الدوي؟! كيف نبني وسط أشياء تخرب. إنسان بعد آخر يسقط. الأبنية وبيوت الأهالي تسقط. الزمن يسقط. هل سيأخذ يدي بين يديه المتورمتين ثانية؟!
مرت الأسابيع بطيئة. قتلت الوقت في التوفيق بين هموم أمي، والسعي وراء التدبيرات المنزلية لإكمال النقص في لائحة المشتريات الصعبة تحت ظروف التقشف الاقتصادي من أغذية وأدوية. عندما أجد لحظات سكون نسبية، أحاول التركيز على ترجمة قصاصة من مجلة أجنبية أو مقال من جريدة محلية أو كتاب، للإبقاء على إتصالي مع اللغة.
صوت مرهَق يعلن: «قام العدو في الساعة العاشرة من مساء أمس بعدوان جديد على أراضينا. خرق حدودنا الدولية في قاطع البصرة على جبهة طولها عشرة كيلومترات وبعمق عشرة كيلومترات. تمكنا عند الضياء الأول من هذا اليوم من إيقاف تقدم العدو واحتواء زخم هجومه. منذ الساعة العاشرة من صباح هذا اليوم، باشرت قواتنا المسلحة هجومها المقابل على قوة العدو ملحقة بها الخسائر الجسيمة».
إجازة سليم الأولى كانت قصيرة بين التحاقه ونزوله من معسكر المحاويل. الهواتف معطلة. بعث لي ملاحظة صغيرة تحدد اللقاء في اليوم التالي بعد وصوله إلى بغداد.
ترك لي الباب مفتوحاً بعد أن انقطعت الكهرباء فتعطل الجرس. تقدمت ببطء، أقرب إلى الحذر، خشية أن تفصح عني دقات قلبي. البيريه والجزمة وُضعتا في المدخل. الحزام العسكري على الأرض عند السرير. القميص الخاكي بخريطة مُمَلّحة تحت كل أبط معلق أسفل خارطة أكبر من رطوبة كلسية على الجدار لم يجد الوقت لترميمه. من مسمار غليظ، تتدلى ثلاثة خيوط معدنية تنتهي بوطاويط سود، تغطي وجوهاً آدمية في ثنايا عباءاتها المجنحة. على أحد رفوف المكتبة أفعى مرقطة تقضم ذنبها، بجانبها قرنفلة يابسة دون عطر. لوحة كبيرة على الحائط لجمال عرجاء، لا يفصلها عن رمال الصحراء الممتدة خلفها، غير تشطيبة خفيفة لسنام تكعيبي. لم أشأ إيقاظه من إغفاءة تطوف حولها رائحة كستناء في هذا الحر الشديد. الشباك المفتوح أدخل تياراً خفيفاً أقرب إلى لفحة كسولة. الستائر تتحرك قليلاً لتكسر وجوم الجفاف. درجة الحرارة تلعق الرقم 40 في المحرار المعلّق على جدار الممر. بعد لحظات من تأملي إيّاه واقفة في إطار باب الغرفة، مد يده فاتحاً راحته في اتجاهي، دون أن يفتح عينيه. ظل مغمض العينين. يده تنتظرني. لم أجد نفسي إلا تحت المرايا.
رأسي يدور. أول رجل. عشر سنوات. خائفة أنا وحذرة. لا! المقولة تؤكد أن الحذر والفضول لا يأكلان من صحن واحد. يجب أن أقرر، هل أنا حذرة أم هل أنا فضولية! الحرب في الخارج. نحن في الداخل. لا وقت للتعارف البطيء. لماذا أكرر كلماته؟ أين كلماتي؟! هل أغلقت باب الشقة خلفي؟ لدينا ساعة واحدة فقط. يرغب في زيارة والدته هذا المساء. سيأخذ قطار الساعة الرابعة الذاهب إلى الشمال. عيناه جذبتاني. بدأت المرايا تساعدنا على التعارف. دعاني للاستلقاء. كان يبتسم طوال الوقت. طوال الوقت القصير. ابتسامته تقترب. المرايا تعكس ظهره. ذراعي بدأت تطبق على جوانبه. كنبات طازج راحت أطرافي تنبت حوله. المرايا تجسّمنا معاً، تدبّ فيها الحياة. طبع الجبهة على شفاهي.
في ومضة حلم بلون السماء، بنيت لنفسي قصراً من سكر. جسده الأشقر الأملس يقطر عرقاً أذاب جدران قصري. سبحت في محلول حليبي دار بي. لن أنجو. استسلمت. وقبل أن أغرق، ابتلعت موجة صغيرة من حلاوة أخيرة.
انقضت الساعة. وضعت أصابعي هناك. قلت لنفسي «حُمرة المغيب». لم أبكِ مثلما يحدث في الأفلام المصرية يوم الجمعة. لم أعد صغيرته.
الفاو. معركة مثلث الملح. تم إعلان دعوة مواليد جديدة وضباط الاحتياط. توالت المراسيم الجمهورية تقلّد كوكبة من المقاتلين نوط الشجاعة. مقاطع يبثها التلفزيون عن مجموعات من أسرى جالسين على التراب أيديهم فوق رؤوسهم. مقاطع لمراكز صحية يصطف عند أبوابها المدنيون في حملات التبرع بالدم. الحرب تدور رحاها في أشرس المعارك منذ اندلاعها. الحصاد البشري ينطلق عند ساعة الصفر. معارك ضارية وسط حقول ألغام نسفت أهدافاً بحرية صغيرة، متوسطة، كبيرة، مدافع ميدانية، مدافع ذاتية الحركة، مدافع هاون. اقتربت عدسات المصورين من بقايا محطة ميكرو ويف، محطة أقمار صناعية، محطة رادار، قاعدة صواريخ تلتها صور تتابع لقاذفة أنبوبية محطمة، موقع مشاة، كدس عتاد، مرصد، مستودع بانزين، خزانات، دروع. ثم هبت كثبان رملية عبر الشاشة شعرتُ أنها ستحمي المتفرجين من دقائق التغطية الأخيرة. فإذا بها بعد مرورها اللولبي على الأرض الحرام تخلّف أبشع منظر لآلاف القتلى الممزّقين. صوت المذيع يؤكد أن اللجنة الدائمة لضحايا الحرب بوزارة الدفاع دعت منظمة الصليب الأحمر الدولية للمساعدة بإخلاء الجثث، خشية من تفشي الأوبئة نتيجة التفسخ المريع في حر الجنوب.
وضعتُ عدداً قديماً من مجلّة National Geographic جانباً. دلافين الغلاف الفضية استلقت على الطاولة. سألتني أمي فجأة تلك الأمسية:
– أنا لا أحب التدخل، لكن أما زلت تنتظرين عودته من الجبهة؟
– نعم.
انكمش وجهها لألم في صدرها.
– هل تفكران في الزواج.
– أي زواج، ونحن لم نكد نلتقي!
– حتى لو انتهت الحرب؟
– لا أعلم.
– كونه من دين آخر سيسبب لك مشاكل مع مجتمعك.
أدرك ذلك وأفكر فيه.
– ماذا عنه.
– أظنه سيتركها للأيام.
قالت أشبه بسخرية:
– شجاعة الحياة المدنية قد تكون أصعب من العسكرية، على أي حال، هذا أسهل الحلول.
– لا شيء سهل يا أمي.
أضافت:
– أنت تضيعين وقتك.
– تقصدين أضيع المزيد من الوقت الضائع.
تأملتني للحظات، ثم قالت:
– ربما لك الحق في هذه الإجابة، فأنتم جيل الحرب.
– ما عدا الحرب، مشاعري قوية تجاهه.
– أقرأ في عينيك الرغبة في الاستقرار، لذا عليك أن تتأكدي من مشاعره هو تجاهك. فالكُرة الأولى تكون في ساحة الرجل عادة.
ثم أضافت بعد قليل:
– رغم كونه فناناً.
سألتها:
– لماذا هذه النبرة الجديّة يا أمي.
اعتدلت في جلستها، ترتشف قليلاً من الماء:
– ربما لأنني أريد أن أجنّبك آلاماً لا جدوى منها.
قلت لها:
– أمي، نقاشنا هذا، هل هو عني؟أم عنك؟
ابتسمت بهدوء غريب:
– لا، هو فقط تساؤل إن كنت تعيشين حالة حب حقيقية، أم أزمة عاطفة مضغوطة بحالة حرب، في صورة حب.
انتظرت برهة عسى أن أتراجع عن سؤالي، لكن:
– أهكذا كانت علاقتك بديفيد. عاطفة مضغوطة في صورة حب؟
قاطع حديثنا البيان العسكري القادم من راديو المطبخ: «رافقت طائرات قوتنا الجوية وطائراتنا السمتية التابعة لطيران الجيش قطعاتنا الأرضية خلال معارك هذا اليوم. منذ الصباح الباكر، قامت بمهمات قتالية جريئة ومتواصلة على قطعات العدو المشتبكة مع قطعاتنا في منطقة المحمرة، وألحقت بدروعه وآلياته وأفراده خسائر كبيرة. بلغ عدد المهمات القتالية لهذا اليوم 127 مهمة قتالية، وعدد المهمات القتالية لطائراتنا السمتية 28 مهمة قتالية. عادت جميع طائراتنا المقاتلة والسمتية إلى قواعدها سالمة».
تشير إلى سؤالي بعد البيان. لم أتوقع أن تكون ردة فعلها هادئة. بعد أن سرحت في جو الغرفة لمدة دقيقتين أو أكثر قالت، كأنها عادت بصوتها من مكان بعيد:
– الآن، بعد أن فقدت نصف أنوثتي، ربما أستطيع الحديث في هذا الموضوع. لم لا؟ فوالدك رحل، لتكن الرحمة له، وديفيد يدّعي أنه تم تسفيره رغماً عنه. بذلك لا أجد في أحلامي إلا ضمائر غائبة.
لا أعلم إن كنتُ صائبة في فتح هذا الباب وهي تتلمس صدرها عندما تتكلم:



تعلمتُ الانتظار، أوزّع اليوم على مقياس أسبوع لأقلل من وطأة البطء. عندما يصيب العطل بدالات الاتصال الهاتفي، يتحول تركيزي من ساعة يدي إلى مربعات تقويم الحائط عليها موعد فحص أمي. اكتشفت أمي عقدة بحجم حبة حمص تحت أبطها الأيسر. وصفتها بأنها «شعور مزعج» وأحياناً «حالة غير مريحة». اصطحبتها في الحال إلى الإختصاصيّ الذي أحالنا إليه طبيب العائلة. دخلنا غرف أشعة وخرجنا من مختبرات تحليل الدم واليوريا. يدخل أسبوع ويخرج آخر. لا مفر، إنه سرطان الثدي. على الفور اقترح علينا الاختصاصيّ عملية جراحية لاستئصال الثدي المصاب، فمعاملات السفر ستأخذ زمناً طويلاً تحت الظروف الحالية. حسب خبرته، عبّر لنا عن مخاوفه من استفحال المرض.

وجه المذيع لا يتحرك فقط حنجرته تطلق الأخبار: «تناقلت عواصم العديد من الدول ملحمة الخفاجية بالتقدير. أكدت دراسة عسكرية إستراتيجية، أعدتها لجنة عسكرية أوربية، بأن المعركة التي خاضها الجيش داخل الأراضي المعادية كانت أكبر المعارك البرية الدولية منذ حرب السويس. وأن هذه المعركة في بعض دروسها تعتبر من أكبر المعارك منذ الحرب العالمية الثانية».

قضيت تلك الأيام بين المستشفى، دائرة الجوازات، مديرية الإقامة والسفر، دائرة الأجانب، السفارة البريطانية، البنك، المحامي، مكاتب السياحة. أحاول أن أجد البديل السريع لها. كانت أمي تمضي أوقاتاً غير معقولة أمام المرآة في الحمام أو غرفة نومها. شعرتُ بشلل تام أمام مصيبتها، لا أعرف من أين أبدأ بالحديث معها وماذا سأقول. لكنها قررت في النهاية أن تسلّم نفسها لمرضة التخدير قائلة لي بكل برود:

– لن يغير طب إنكلترا حقيقة أنني مصابة. يجب أن أواجه الأمر بنفسي.

ثم أضافت:

– لا تنفع الدراما مع المرض، أما يكفي ما خضناه؟!

لم أتبين إن كان برودها اقتناعاً، أم بروداً تطفئ به النار تحت صدرها، أم أنه ذلك البرود الذي تغطي به مشاعرها بطريقتها الإنكليزية التي اعتدتُ عليها في السابق. في كل الأحوال، احترمت شجاعتها في مواجهة هذا الواقع الجديد. لقد كان مطلوباً منها اتخاذ قرار سريع لا يتجاوز أسبوعين. تنهدت، طالبة مني أن أطفئ النور وأغلق الباب خلفي. وقفتُ في الممر مدركة أنني فقدت القدرة على البكاء منذ فترة. أخيراً وصل إليها بريد من ديفيد وميلي اللذين تعاقدا مع شركة نفط سعودية. قررا الاستقرار في منطقة الخليج. عند سماعهما خبر حالتها الصحية، وصلت بطاقة أمنيات بالشفاء العاجل، تعتلي أرنباً ظريفاً في زي طبيب يحمل باقة ورد أزرق.

التلفزيون يتكلم عن صناعة النصر. بدأ حديث عن قرارات مجلس الأمن الدولي، حركة عدم الانحياز، مبادئ حركة البلدان غير المنحازة، دول المؤتمر الإسلامي. يتكلمون على ضرورة استمرار مسيرة التنمية الاقتصادية والاجتماعية بزيادة النمو الاقتصادي بالتحديد، وفق الإمكانات المتاحة. وُضعت التخصصات للخطة القومية. من ناحية أخرى لم تقتصر الحرب على الأهداف العسكرية فقط، بل تم قصف الأجهزة والمنشآت والفعاليات وأهداف مدنية صرفة. كما دخلت منشآت المفاعلات النووية تحت المطرقة. ثم صدرت تقارير عن سوق سوداء لقطع غيار طائرات F14 وF5 والدبابات التشفتن M60. عُرضت لائحة بمواقع المعارك الأخيرة ما بين طهران ومهران وقصر شيرين وإقليم عربستان. أخيراً، بدأنا نشهد انفجارات داخلية راح ضحيتها طلبة من كلية الإدارة في جامعة المستنصرية. عجّ الشارع بلافتات الاحتجاج وصور الشهداء قبل تخرجهم.

لم أدرك أن نجاح العملية كان بداية الصراع. مريض في البيت ليس كزيارة مريض في المستشفى. شعرت أن حالتها النفسية كانت مسؤوليتي كاملة. أرعبني موضوع التعامل معها عندما تتكلم عن انتهاء دور أنوثتها، والنقص الجديد الذي تشعر به، وهذا الفراغ الذي تحمله في داخلها. البكاء الخافت المتقطع في ليالٍ حارة بسبب الكهرباء المقطوعة يجعلني في دوامة إزاء محنتها. عندما تئنّ بنبرة مميزة، أعلم أنها تحاول تنظيف الجرح بمفردها. دخلتُ عليها مرة دون أن أطرق الباب. صُدمتُ لمرآها مستلقية على ظهرها وقد كشفت الجرح للهواء. الثدي الأيمن مترهل إلى جانب، والأيسر يشبه بقايا ما تركته قطة جائعة كانت هنا قبل قليل. بعد ذلك، طلبت مني أن أحضر لها ممرضة خاصة تعتني بها أثناء فترة النقاهة، ثم أغلقت باب الغرفة على نفسها.

الناطق العسكري لا يكفّ عن التصريح: «معركة البسيتين. دارت معارك ضارية تخللتها محاولات التفاف متعددة، لكنها انتهت جميعها عند المواقع الأمامية. انهارت خطوط الدفاع الأولى والثانية، ثم بدأت معارك خط الدفاع الثالث والأخير. حاولت القوات المعادية القيام بحركات عسكرية على محاور أخرى، لتخفيف الضغط على دفاعات البسيتين، لكنها لم تنجح بسبب كثرة الخسائر التي مُنيت بها في الأرواح والمعدات. أعادت قواتنا رفع العلم على قصبة البسيتين».

أتتني رسالة خطية من سليم بعد انقطاع طويل للهواتف. أقرأ كلماته للمرة الأولى:

«أرغب في لقائك إن كان ذلك لا يضايقك.

آسف فخطوط منطقتنا معطّلة.»

كان عليّ الانتظار يومين قبل رؤيته. بعد أن انهالت غارات جوية، مُنع التجول على إثرها لمدّة ثمان وأربعين ساعة. كان سيلتحق بالجبهة قريباً، قرر أن يخصني بالوداع.

أخذني بين ذراعيه قبل الوصول إلى غرفة الجلوس. أجواؤها ناعمة بتلك الوسائد الشذرية. أصرّ على مناداتي صغيرته. أطبق بذراعيه القويتين حولي. ابتلعتني بنيته الدافئة، لا يتوقف عن استنشاق عطري. يلتهم نظراتي، تفصح عن خليط من فضول ومفاجأة لطريقة استقباله لي في الممر. قرأتُ ذعر الخطوط الأمامية في عينيه. شعر برعشة قلقة من حالة اللقاء السريع قبل التحاق مجهول. استوعب دهشتي، فشدني إليه أكثر قائلاً بابتسامة، كأنه يبرر احتوائي:

– لا وقت لدينا للتعارف البطيء.

أضاف:

– جرأتك على القدوم والمدينة تحت الإنذار تسعدني، خاصة وقد سمعت أن أمك خرجت من عملية مهمة.

ابتسمت لكلماته. في اللحظة التالية، هوَت المجاملة بين قدميَّ عندما جفلنا معاً لصوت طلقات واضحة، صدرت من مركز مراقبة أمني قريب في المنطقة. قلت ونحن نستقر على وسائد الجلسة الأرضية:

– نعم، تركتُ المدام لتكون رفيقة أمي اليوم.

قال دون انتظار:

– أنا شكور لهذه المدام.

أضاف:

– أتمنى لوالدتك السلامة.

قلت:

– ولك أيضاً. متى تعود من الجبهة؟

أشعل سيكارته. نفث دخاناً مضطرباً:

– ذلك يعتمد على الأقدار. على كل حال، أنا سأتفاءل بوجهك.

– ماذا، ستتخذني تعويذة المقاتلين؟

يتصرف دون استئذان. رفع يده باتجاهي:

–لم لا، حضورك يفرحني، تساؤلاتك تثيرني، وعمرك يقلقني. هذا يدعو للكثير من التفكير في أيام الخنادق والخفارات والحراسة.

استقرت يده ما بين شعري ورقبتي. سرت غربة أليفة من حافات أصابعه تدحرجت عند تكورات كتفي. أحاول التركيز على خلق السؤال التالي:

–يقال إن أصعب مهمات الجندي هي حراسة الموقع ليلاً.

أجاب:

–صدقيني، إن الظلمة الدامسة والمسؤولية هي التي تحولنا إلى أشخاص آخرين حتى يطلع الفجر.

– إذن، كيف تصمدون!

–بيقيننا على الحدود أن هناك من ينتظرنا في المدينة، فنرسم أنواع التخيلات لرحلة العودة.

–ماذا عن أهلك؟

–والدي متوفى، ووالدتي تعيش مع أختها الصغرى في الشمال. نلتقي في فترات متباعدة عندما تكون الظروف مواتية.

كريمة برائحة الخوخ، ضفدعة طفولة من بلاستيك أخضر تطفو على الرغوة في الحوض. تمددت فيه. جلس أمامي. دفتر التخطيط وقلم الفحم في يده. دمدم مع نفسه بلغني صوته همساً: «كيف تجرؤ الآلهة على إرسالك إليّ في وقت كهذا؟!» كان سيرسمني، أو أجزاء مني.توقف برهة. طال زمن بيني وبينه. رمى القلم والدفتر، انزلقا من يده في المغسلة. جلس على الأرض إلى جانبي، يد في شعري وأخرى تخلق دلافينَ في الماء حولي. مغمضة العينين، رميت ذراعيّ إلى الخلف. حرية حمامة بحجم قبضة يد صفقت بجناحيها وحلّقت من تحت إبطي.

صور من المعركة. تم أسر جندي. وضعوه أمام عدسة الكاميرا. ملابسه مغبرة. ملامحه غير واضحة. ذراعاه وقدماه مشدودة بحبال مربوطة بسيارة عسكرية تشدها إلى الجهة اليمنى وأخرى إلى الجهة اليسرى. انطلقت السيارتان في اتجاهين متعاكسين ابتلعتهما حافتا التلفزيون، وابتلعنا نحن أشلاء ما كان جندياً.

سمعت تلك الليلة طرقاً منتظماً. ظننته ينحت في الأستوديو. لم أشأ إزعاجه في لحظات عزلته وهو يعمل. حاولت توقيت أنفاسي مع الطرق عسى أن يُدخلني الإيقاع إلى إغفاءة مرة أخرى. لكن بعد فترة أرق مضنية التحقت به في الإستوديو لأجد نصف تماثيله قد تحطم تحت مطرقته منذ ساعات الليل الأولى. جالس في الزاوية البعيدة يرقب الحطام. يدخن بشراهة ويبكي.

مشيت بحذر، قدماي حافيتان أحاول أن أتفادى أذى الحطام المتناثر في كل مكان. عندما تجاوَزه ظلّي، رفع سليم بصَره في اتجاهي. أمسك بطرف ثوبي يستعين بالقماش، يشد عليه فيرفع جسده بتثاقل عن الأرض. قال بهدوء غريب:

–في الماضي، كنت أعرف في حياتي شعوراً يسمونه إشراقة الإبداع، أما الآن، فلا أجد غير دقائق انتعاش صغيرة في صراع مع الزمن يشبه صحوة الموت.

بصوت تشوبه نبرة يأس لم آلفها بعد قال:

– أتمنى احتواءكِ قبل فوات الأوان.

مدد ثناياي على منضدة العمل الفارغة. شغلناها حتى الفجر. بألم.

ودعني منصرفاً. رتبتُ الشقة. أغلقت بابها. قررت أن أمشي بعد منع التجول الطويل في الأسابيع الماضية. اتخذت طريق مؤسسة بريد شارع الكندي الذي دمّره الصاروخ الأخير. كان مبنى صغيراً متلاصقاً لبنك الرافدين في الحي السكني المجاور. لم يبق منه سوى خرائب حجر، قضبان حديدية ناتئة، زجاج محطم، لافتة باسم كلّ من الموظف والموظفة اللذين استشهدا. يقال إن فرقة الإطفاء أخرجت الجثتين في أربع مراحل. مررت بجانب عمود الكهرباء المنثني في منتصفه. دست على بقعة دم بنيّة كانت قد تيبست على شكل خارطة على الحصى تحت أقدامي. عندما رفعت منها حصاة مبقّعة، أحدثت ثغرة في خارطة الدم تلك. توقفت لحظات أرقب الحطام. بكل قوتي رميت الحصاة باتجاه المبنى المستوي الممتد أمامي، فشقت الهواء إلى أبعد نقطة استطاعت أن تصل إليها، ثم استقرت فيه.

قبل انتهاء الإجازة التالية قررنا تلبية دعوة المدام. ذهبنا معاً إلى عرض نور. كانت المدام في أوج ألقها وقلقها، بعد أن قضت الشهرين الماضيين في تدريب فرقة من أربعين طالباً وطالبة من الناشئين في المسرح. ستضرب ضربتها. يئست من فرقتها، التي ستصبح تاريخاً قديماً وحلماً منسياً، حالما تفتح الستائر الحمر هذه الليلة. لا بد أنها تنازلت عن مقاييس كمالها الفني وانصاعت للوضع القائم. وجدتها قد استغلت رشاقة طلبة الفرقة بدلاً من تذمرها القاتل من انعدام لياقتهم التامة لأداء الباليه. يده المتورمة تمسك بيدي في ظلمة القاعة.

يبدأ السيناريو بفريقين يفصل بينهما نهر. الفريق الأول يعيش تحت شمس مذهّبة هادئة، لا يأبه بفريق بدأ يدبُّ فيه المرض لاختفاء شمسه تحت غيمة كثيفة في شكل فطر عملاق شغل نصف خلفية المسرح. أبت الغيمة أن ترحل، فقرر أهلها أن يهاجروا طلباً للدفء في بلدٍ بعيدة. لكن ما إن وصلوا إلى الأرض المشرقة، حتى نشبت بين الفريقين حربٌ ضارية، كلٌّ يدعي ملكية الشمس. الموسيقى صاخبة. تبدأ الضحايا تسقط في النهر. يستمر القتال عدة أيام حتى تصل الموسيقى إلى أوجها. عند أعلى نوتة تنبثق من وسط خشبة المسرح حورية ماء. تحاول إلقاء بعض من صفاء عالمها بين المتنازعين. قفزت المدام في زي أبيض لامع كأنها أسطورة، وراحت تسبح بين بقع من الظلمة والنور تتتابع خطواتها مع العزف، أو أن العزف يتبع خطواتها.

– تطبّق كل ما علمتنا من نظريات الظل والضوء. طارت في الهواء تطلب منهم أن يشاركوها في تأمل النور الهابط. ترقص للفريقين بين الأشعة، تبين لهم أن النور نعمة للجميع وليس ملكاً لأحد. بَرَكة لا يجب القتال لاقتسامها. بحركات مسرحية تصاحبها مطاطية خبيرة، شرحت لهم كيف أن الضوء يدخل إلى العين، لا يخرج منها. ولولا هذه الحقيقة لما تمكّن بعضنا رؤية بعض. إذا استمر القتال ستغضت الشمس وتحل لعنة الظلام. اكتأبت الموسيقى. توزع الراقصون على الأرض يلاحقونها بحذر. عندئذ دعتهم إلى أن يتخيلوا الضد. ماذا لو كان الضوء يخرج من العين ويسقط على الأشياء لينيرها لنا؟! ماذا لو كانت نعمة النظر حالة فردية يفخر بها كل إنسان على حدة؟! بدأت تشير مع الموسيقى إلى أقوى أعضاء الفرقة ثم إلى أصغرهم سناً، أخيراً إلى الطالب الذي تمثّل دور العليل. فلان قوة بصره أقوى من فلان لأنه أصغر سناً أو أقوى جسداً أو يتمتع بصحة أفضل من غيره. هل يمكن أن تتخيلوا أن الحياة مظلمة ونحن ننير نهارنا وليلنا بمشاعل تبث أشعة من عيوننا؟!

في الحال وقف أعضاء الفرقة. التمع في الظلام أربعون زوجاً من عيون، كانت خدعة مسرحية هائلة بتثبيت أشرطة من مادة فسفورية هالاتٍ حول عيون كل طالب. دعتهم الحورية إلى أن يتخيلوا هذه الرؤيةً الأسطوانية المخيفة. سيكون بصرنا عبارة عن أنفاق مظلمة مبطّنة بالسواد، نرى النور فقط في نهاية النفق، عندما يسقط شعاع العين على الأشياء التي تحيطنا. سننظر إلى مقعد في زاوية، أو سيارة تمر أمامنا بسرعة، أو جزء من بناية أو حديقة، أو حقل، أو وجه الصديق والحبيب. المدام تنساب من بين الأشعة. على خلفية المسرح راحت الأشياء الجامدة تسبح في الفراغ خلفهم. طافت صورة لمقعد. بعد قليل هبط تخطيط حديث لسيارة مسرعة. ثم ظهر جزء من بناية ومرّ شريط من حقل أخضر. رقصت لهم هذا السؤال: «إن رحلت الشمس سنموت في النفق ولا يمكن أن نجمع في محيطنا أفقاً جميلاً. فماذا سنفعل حينذاك؟!»

كآبة في المقاعد. أدرك أن هذا هو عرضها الأخير. راقبت جمالها من بعيد. لستُ واثقة إن كانت ترقص لحلمها، أم لأمها التي لم تعد تخرج من البيت بعد طلاقها من والدها. الأب من أصل إيراني. عندما انفصلا، قرر أخذ الابن معه متجهاً إلى طهران، والأم أخذتها. ربما ترقص لأخيها الوحيد الذي يحارب على الجبهة الإيرانية. لم تلتق به منذ سنوات طويلة فقد باعد شط العرب بينهما.

عندما انتهى التصفيق والصخب التقينا. أخبرتني أنها ستتزوج عازف كمان متقاعداً يكبرها بخمس عشرة سنة. وأضافت ضاحكة: «لا يهم إن سمحوا لي بالعرض غداً، أنهيت مهمتي. على كل حال الزواج المتأخر خير من الطلاق المبكر».

استدارت نحونا:

– وأنتما أول المدعوين.

ضغط سليم على يدي قائلاً:

– أتعلمين أن سنة انقضت منذ لقائنا الأول.

فوجئت:

– لم أدرك أنك تعدّ الأيام.

قال:

– إنه الوقت. ما هي الخطوة التالية، فحتى المدام قررت؟

وضعت رأسي على كتفه:

– سأرحل قريباً مع أمي إلى إنكلترا.

وسط صخب الطلقات تنبثق مساعي لجان الوساطة. لجنة النوايا الحسنة ولجنة المساعي الحميدة التي أيقنت أن الحرب ستستمر شهوراً عديدة، ومن أجل إيجاد حل لإنهاء النزاع، تقدمت بالمقترحات التالية:

أولاً–انسحاب كامل للقوات من الأراضي.

ثانياً–وضع لجنة إسلامية، ينفق عليها البلدان، تتولى النظر في حل النزاع.

ثالثاً–تشكيل لجنة لتحديد الجهة التي بدأت الحرب تمهيداً لتحديد الطرف الذي سيدفع التعويضات للطرف الآخر.

قالت لي أمي ونحن نتناول فطورنا معاً:

– هل سأسمع أجراس زفاف أم ماذا؟

– أمي أرجوك، نحن لا ندق أجراساً عند الزواج.

أجابتني بنبرتها الساخرة التي تبنتها مؤخراً منذ خروجها من تلك العملية:

– بعُرف من فيكم يا ترى؟

ثم أضافت ببرودها المعهود:

– ويا ترى، هل سيخاف عشيرته أم سيرعبه الالتزام؟

انفعلت:

– لماذا تهزئين من الموضوع؟

أجابت دون تردد:

– بالعكس، أنا أحاول أن أؤكد لك أنك غير ملزمة بمرافقتي إلى إنكلترا إن كنت تعتقدين أن حياتك معه هنا أفضل.

لم أملك جواباً لتساؤلاتها. لا أملك أي وقت لي. حالات تفرض نفسها عليّ وقرارات اتخذت نيابة عني. كأن أمي وسليم اقتسما قرار أيامي القادمة بينهما، دون قدرتي على الاعتراض.

بعد فترة صمت وتأمل، قالت كأنها تكلم نفسها:

– على كل حال، ما أذكى أن نتدارك أخطاءنا قبل فوات الأوان، لكن من جهة أخرى، ما أغبى أن ندع أجمل ما في الحياة يمر من جانبنا فتضيع الفرصة.

انتهت الحرب. المدام تزوجت. بعض الأسرى عادوا. بعض المفقودين ظهروا. بعض الموجودين اختفوا. تم افتتاح الطريق الجوي للسفر مرة أخرى. تركتُ احتفالات وقف إطلاق النار خلف ظهري. ألقيت نظرة أخيرة على التمثال الذي نحته لي والرسالة المرفقة هارباً من الوداع. ركب سليم القطار من الجبهة إلى الشمال مباشرة. جندي مشاة غريب عني يسلمني الأمانة في بغداد. لم يكن أبو سعد مراسلنا هذه المرة.

«صغيرتي

كما ترين إنه هيكل رجل يغرس عصا في الأرض وظل العصا يستلقي على القاعدة الواسعة تحته. قاس العصا بأشبار من يده فوجدها تطابق طول الظل. لكن كلما أراد قياس طولها نسبة إلى ظلها بمطابقتها على الأرض مباشرة، اختفى الظل حالاً تحت العصا المستلقية، واختفى خيالها في المسامات.

صغيرتي

أعتذر إذ خضت مشواري قبلك. فهل لي الحق في أن أحتجز حصتك من العمر عندي؟! أعلم أنك ستتفهمين موقفي، ربما بعد عشر سنوات من الآن.

حلّقي يا صغيرتي فهذا هو وقتك. أما أنا فسأبقى. سأمكث في مكان تعلمت فيه كل فنون قتل الوقت ولم أدرك أن الضربة القاضية تأتي من الزمن. يا إلهي، كيف فاتنا أن نفهم وقت + وقت = زمن!

أعبري إلى هناك. ارحلي بعيداً. طوّفي في البلاد. ابحثي... لعلك تجدين تسوية عادلة مع النفس.»

صعدتُ السلالم الطائرة أحمل حقيبة واحدة تتبعني أمي بثدي واحد.

– ميلي لا تكفّ عن إرسال تلك البطاقات الغبية تحاول رفع معنوياتي كأنها تعتذر نيابة عنه. هي لا تدرك أنني في عالم آخر الآن. كل حرقتي كانت أن أجده إلى جانبي عندما أستفيق من التخدير.
سألتها:
– هل وعدك بشيء.
– الوعود يا ابنتي هي من صنع خيالنا فقط. مثلما وعدني والدك، عندما كان طالباً في إنكلترا، أن الحياة معه في الشرق قد تكون «لا بأس بها» على حد قوله، ونحن نناقش فرص شبابنا وإمكانيات مستقبلنا في ذلك الحين. كم يبدو ذلك الزمن صوراً فوتوغرافية نسيتها في خزنة الذكريات.
– وديفيد؟
– هذه المرة ديفيد كان يعتقد أن العودة إلى الغرب قد تكون «لا بأس بها»، بعد أن خضنا هذه التجربة الشرقية معاً.
– وماذا حدث؟
– أعتقد أن الفرق بيننا هو أن أفكاره كانت عازبة.
– مع ذلك، كنتِ على استعداد للحاق به رغم ارتباطك بنا.
– أتعلمين أنني لم أعد أميز بين شعوري ذاك إن كان رغبة في اللحاق بشخص، أم كان رغبة في الهروب من شخص.
ثم أضافت:
– أم هل يجب أن أقول اللحاق بحالة والهروب من حالة؟
– أهكذا تصفين الزواج على أنه حالة قابلة للتغير عندما نسأم منها!
– لا تدينيني، فأنا أتبادل التجربة معك. دعينا نتجنب الأحكام. يكفيني شعوري أن والدك، رغم كل المسافة التي كانت تفصل بين تكويني الغربي وتكوينه الشرقي، لو أنه ما يزال على قيد الحياة، لما ترك جانب سريري قبل أن أسترجع إنسانيتي.
ثم قالت كأنها تنهي الاتصال بيننا:
– كل ما أردت قوله لك، هو أن بعض الحقائق تأتي بعد فوات الأوان.
أدركت أنها ستترك نقاشنا في عهدتي. أناولها حبة مهدّئة قائلة لها:
– هناك أمل بذهابك إلى إنكلترا.
اعتدلت في جلستها ثانية. أنزلت قدح الماء جرعة واحدة. بشيء من ارتجافة سألت:
– هل ستأتين معي؟
– نعم.

بيان: «في إطار فعالياتها الشجاعة رداً على قيام العدو هذا اليوم بقصف مدننا ومنشآتنا الحيوية في البصرة وأبي الخصيب والفاو والقرنة بالمدفعية والطائرات، قامت طائرات قواتنا الجوية بغارات رادعة ضد منشآت العدو الاقتصادية في مدن عيلام وكرمنشاه وخرم أباد وجزيرة خرج. أنزلت ضربات مباشرة. وقد كبت لنا طائرتان، فنحمّل بدورنا العدو مسؤولية الحفاظ على سلامة الطيارين».

لم يأتِ في إحدى إجازاته من الجبهة. دق الباب أحد مراسلي معسكره. سلمني أبو سعد رسالة ومفتاح الشقة. اختفى دون أن يقبل دعوة أمي لقدح شاي، معتذراً أنه يجب أن يلتحق. دق قلبي للأسوأ. فتحت المغلّف. الرسالة أشبه ببرقية:
«صغيرتي
صدر أمر نقلي إلى منصورية الجبل. تم إلغاء إجازتي هذه عسى أن يمددوا القادمة. ليست المسألة خط القتال فأنا ما زلت في نعمة تنفيذ مناضد عسكرية، دون نقاش. لكن إشاعة أهل القلم تقول إنهم سيوكلون إليّ مهمة نقل جثث إلى المدينة. لا بد أن المفتاح في يدك الأخرى الآن. عطّري لي المكان بأنفاسك حتى نلتقي. أتمنى أن أجدك في انتظاري هذه المرة. أهديك قبلة. لا تقلقي. أبو سعد موجود.»

صوت المحلل السياسي يلاحقنا كالكابوس: «في المعارك التي شنها العدو وقع عدد من قواته في الأسر. تبين أن بين أولئك الأسرى عدداً من الأطفال الذين لا تزيد أعمارهم عن 16 سنة. الصليب الأحمر سيعيدهم إلى ذويهم ويصدر تقريراً تحت عنوان زج الأطفال إلى ميادين المعارك».

تلك الليلة التقيت بحسّون الملعون. أخذ يرقص أمامي وشيئه الصغير ينبع من تحت دشداشته، يوجهه في جميع الاتجاهات، مفتخراً أنه ألبسه حلقة القنينة الزجاجية. لم أجد أي أثر لبقية الأطفال أو معمل البيرة. ناديته لأسأل عن خدّوجة. لا يبالي ويشرع في الركض باتجاه المزرعة. ركضت خلفه أتوسل إليه أن يتوقف عن الجري. لكنه يمضي مسرعاً. في منتصف الطريق تعثر بصخرة نبتت تحت الأقدام فجأة. هبط على وجهه مرتطماً بالصخرة. لحقت به لاهثة. جثوت على ركبتي إلى جانبه. أناديه لكنه لا يجيب. قلبته على ظهره. أغمي عليه. شيئه الصغير يسبح على التراب في بركة من دماء قرب بطنه.

بعد أسبوعين جاءني أبو سعد مرة أخرى. أُلغيت الإجازة للمرة الثانية، لأجَل غير مسمى، على حد تعبير المراسل المتعجل مؤكداً لي أن سليم بخير. قرأت الرسالة بحذر:
«صغيرتي
ماذا أقول! رقدَ على كتفيّ طوال المسافة إلى البصرة. حمّلت رسالتي ما لا طاقة لها عليه ونفسي لم تعرف شكل وسعها إلا في تلك اللحظة. حدود تحملي انكشفت أثناء الرحلة الأخيرة هذه. رحلة يسميها أهل الجبهة بـ«السخرة».
زحفت في درب بدأ يفقد شخصيته تدريجياً. أصابعي قطن لحمي يغلّف عظاماً هشة تذوب في أماكنها. أشعر أن قدميّ انخلعتا عن الكاحلين وانفصلتا عن جسدي لتسبحا في ظلمة ما تحت المقعد، تتحسّسان الدواسات بعبثية، فيتردد مؤشر السرعة حول محوره.
الضابط إنسان طيب دعا لي بالبر وسلامة الطريق. فوق رأسي صندوق رفعته بأنفاسي. سيارتي تدبّ كسلحفاة عجوز تثقلها قشرتها السميكة مثلما يفعل بي هذا التابوت. حالي من حالها كأنني أمشي على أربع. لم أقو على التفكير، فكلما أتذكر جثته المتقطعة تُنقل إلى المستطيل الخشبي، ينتصب شعري كدبابيس تفتق في جلد جمجمتي.»

الهاتف يقطع السطور. رنينه يأتي من قعر بئر عميقة. تركت الرسالة. المدام في مزاج مرح على الطرف الآخر:
– سنسمي العرض نور. المسرح سيمدني بالفرقة وأنا سأمدهم بالموسيقى وتدريبات الرقص.
– مبروك.
بيان آخر. أحاول التركيز على بقية الرسالة. كانت حصيلة المعارك تحطيم القوات المعادية. بدأ حديث عن التنمية جنباً إلى جنب مع البندقية. بند يدعو إلى النمو الاجتماعي، الإعداد الصحيح لطلائع الأمة، التقدم بالبناء لَبنة لَبنة، وبند آخر يؤكد أن الحرب ليست فقط في المواقع الأمامية، بل في القواعد الخلفية أيضاً كالمستشفيات والمدارس والمؤسسات الحكومية.

«لا بد أن العربة كانت تتباطأ عن عمد وحافتي الرصيف تضيقان على مسيرتنا. لا يفيد الانشال بتغيير محطات المذياع. آيات من القرآن. بيان عسكري. إهداءات الجنود من المعركة. أغنية حربية. وشّة محطة عاطلة. تقيأت قليلاً من النافذة، فسالت صفرة قاطعة الشريط البرتقالي المرسوم على جانب السيارة البيضاء. تلهيتُ بعدّ السرابات المتعاقبة المرتجفة على إسفلت الشارع المستلقي أمامي. أشباح من حرارة أشقها فتشقني حتى وصلنا إلى نقطة التفتيش العسكرية. طلب مني العريف المسؤول إجازة السوق وورقة عدم التعرض ودفتر الخدمة العسكرية. انفجار في الشارع تسبب في عرقلة السير. متى تنتهي هذه الأهوال؟ أوصلت الشهيد أو ما تبقى منه إلى أهله. ليال دون إنقطاع تؤرّقني فأكتب إليك. أعذريني إن وجدتني إنساناً آخر.»

إجازته الثانية كانت أطول قليلاً. عندما استلقى رأسه على الوسادة شعرت أنه تغير. وجدته يتكلم كلاماً كثيراً هو أقرب إلى الهذيان، أطلق عليه فترة نقاهة، طالباً مني أن أمكث معه أطول فترة ممكنة. تلازمنا عشرة أيام كاملة، لا أتركه إلا للاطمئنان على أمي، تسهر عليها الممرضة وتزورها المدام بطلب خاص مني. شعرت أن كل ما أملك هو تلك الأيام العشرة.

رقصت عبرها شفتان في الأعلى وشفتان في الأسفل. شيء ينتهي وشيء على وشك الابتداء. ينام أحدنا على صدر الآخر حتى تنتظم الأنفاس. نعدّ الدقائق تحت حبات الماء البارد. صابون من

